


سلسلة مؤلفات سماحة الشيخ عبد الله ابن جبرين رحمه الله (٢٢)

شرح التائية

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية

رحمه الله (ت ٧٢٨هـ)



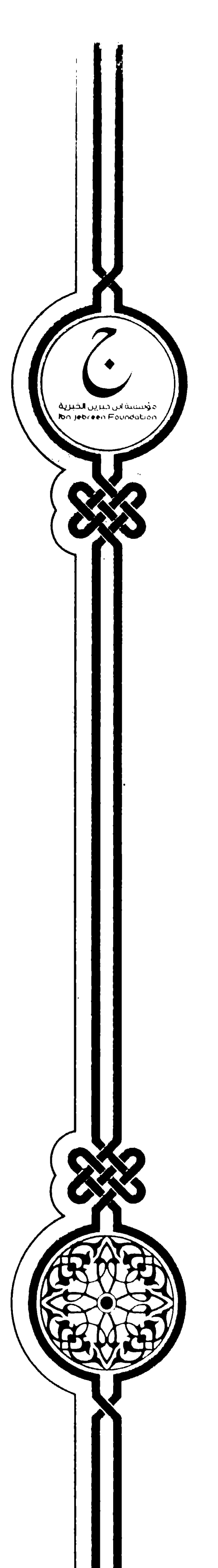


شرحه

سماحة الشيخ العلامة

د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله (ت ١٤٣٠هـ)

أعيد طبعه بإشراف مؤسسة الشيخ عبد الله ابن جبرين الخيرية



سلسلة مؤلفات سماحة الشيخ عبدالله ابن جبرين (٢٢)

شرح التائية

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية
رحمه الله (ت ٧٢٨هـ)

شرحه
سماحة الشيخ العلامة
د. عبدالله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله (ت ١٤٣٠هـ)

أعيد طبعه بإشراف مؤسسة الشيخ عبدالله ابن جبرين الخيرية

ⓒ مؤسسة ابن جبرين الخيرية، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن جبرين، عبدالله بن عبدالرحمن
شرح التائيّة لشيخ الاسلام ابن تيمية./ عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين - ط ٢ - الرياض، ١٤٣٨هـ
١٧٢ ص؛ ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٥ - ٢٠ - ٨٢٢٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- القضاء والقدر (الاسلام)   ٢- الجبر والاختيار(علم الكلام)
٣- الايمان (الاسلام)   أ- العنوان
ديوي: ٢٤١   ١٤٣٨/٩٩٨٧

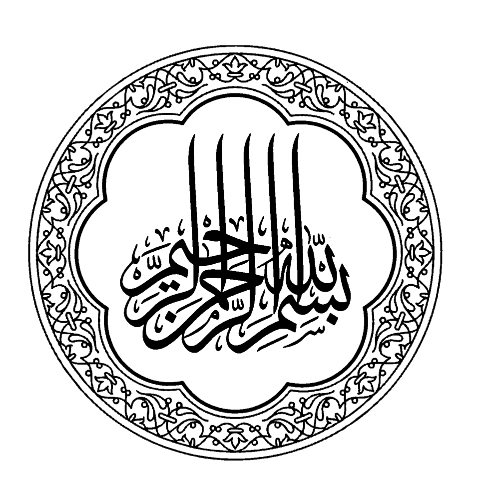
رقم الإيداع: ١٤٣٨/٩٩٨٧
ردمك: ٥ ـ ٢٠ ـ ٨٢٢٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الثانية
١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٣٣٥ الرياض ١١٤١١
هاتف: ١٤٢٦١٠٠٠ ١ ٩٦٦+
فاكس: ١٤٢٦٣٧٠٠ ١ ٩٦٦+
جـوال: ٠٠٨٠١٠٠ ٥٦ ٩٦٦+
www.ibn-jebreen.com
info@ibn-jebreen.com
book@ibn-jebreen.com


مؤسسة ابن جبرين الخيرية
Ibn Jebreen Foundation

أسهم في طباعة هذا الكتاب بعض محبي الشيخ رحمه الله
ليباع بسعر تشجيعي فجزاهم الله خير الجزاء



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فحيث إن مؤسسة ابن جبرين الخيرية بعد وفاة سماحة الشيخ الوالد عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين رحمه الله حملت مهمة نشر تراثه العلمي، وحصلت من ورثته على الحق الحصري لنشر تراثه من كتب وغيرها.

وقد قامت المؤسسة بعدة خطوات في ذلك منذ وفاة الشيخ رحمه الله؛ حيث عملت على جمع المواد الصوتية والمرئية وتصفيتها وفهرستها وترتيبها وتفريغها، وجمع ما كتبه الشيخ بخط يده أو أملاه من كتب ورسائل وفتاوى؛ وذلك لإخراجها في عدد من المنتجات الورقية والإلكترونية والصوتية وغيرها.

وفي خطوة للتعجيل بنشر بعض كتب الشيخ رحمه الله وقع اختيار المؤسسة على عدد من الكتب التي عمل عليها بعض طلاب العلم من تلاميذ الشيخ رحمه الله وغيرهم، وكان اختيار هذه الكتب لسببين: وهما: أهمية الكتاب، وكون العمل فيه متقنًا في الجملة.

وكان من هذه الكتب كتاب (**شرح التّائيّة لشيخ الإسلام ابن تيمية**)، والذي اعتنى به وطبعه سابقًا الدكتور (**طارق بن محمد بن عبدالله الخويطر**)؛ فندعو الله أن يثيبه ويجزيه خيرًا على ما بذل من جهد.

والمؤسسة إذ تسعى في إعادة طباعته رغبة في نفع القارئ، وإكمالًا لرسالة الشيخ رحمه الله في نشر العلم الشرعي، وأملًا في أن يستمر أجر هذا العلم لمؤلفه ومحققه ومن سعى فيه.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء سماحة الشيخ المؤلف ومشايخه رحمهم الله، وأن يسكنهم فسيح جناته، إنه سميع مجيب.

قسم البحث العلمي في مؤسسة ابن جبرين الخيرية

تقديم المحقق

الحمد لله القائل: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل: **(مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)**[(١)]، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن أفضل ما صرفت فيه الأوقات، وبذلت فيه الأموال، وتعبت في طلبه الأجسام: العلم الشرعي تعلماً وتعليماً، وما ذاك إلا لأن الله جل وعلا رفع شأن العلماء، فقال جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير: «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[(٢)].

ويكفي العلماء فخراً أن الله جل وعلا استشهد بهم على أجل مشهود عليه وهو توحيده، فقال عز من قائل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأخبر النبي ﷺ بفضل العلم والعلماء فقال: **(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رضىً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ**

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٣.

الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[١].

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وإن أمة كثر فيها أولئك العلماء البررة لجديرة أن تصافحها يد السعادة والهناء والعز والإباء. وإذا عرف المسلم فضل العلم والعلماء وعظم منزلتهم وسمو مكانتهم حرص أن يكون قريباً منهم ، لينهل من علمهم وأخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فالعلماء نجوم في السماء مضيئة ، متى أفلت ضل السائرون ، ونور في الطرقات المظلمة ، متى انطفأ تعثر المارون.

ومن هؤلاء العلماء الأبرار والأولياء الأخيار شيخنا الحفي الوفي الزكي عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين حفظه الله ورعاه ، وجعل الجنة بعد عمر مديد بتقوى الله مثواه ، فهو من العلماء الذين صاروا بحمد الله أئمة ، ومناراً للعلم فهماً ، وعلماً للحق ، ونوراً يستضاء بهم ، وهو ممن اتصلت محامدهم ، وعلت مبانيهم ، وجمت مكارمهم ، فجرد في العلم العناية ، وأظهر فيه الكفاية ، وصرف إليه اهتمامه ، وأوضح للناس ما التبس عليهم فهمه واشتبه ، ولذا حرص الكثير من طلبة العلم على ملازمته ، وحضور دروسه ، وسماع محاضراته وكلماته ، فاستفادوا من علمه وخلقه الشيء الكثير، فهو أريحي كريم ، رزقه الله تعالى منطقاً سهلاً ، وأدباً جزلاً ، فأكرم به مورد فضل ، ما برح منهله العذب كثير الزحام ، وكنت ممن تتلمذ عليه وقت الدراسة النظامية في

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣).

المعهد العالي للقضاء، ثم تشرفت بحضور بعض دروسه ومحاضراته وخطبه وسماع فتاويه، فانتفعت بحمد الله من ذلك كثيراً، فمازالت شروحه تسرُّ خواطرنا، وتشنِّف أسماعنا، وقبل ذلك استفدت من سمته وخلقه وسماحته، فهو طاهر الثوب، محمود الفؤاد، طاهر الوداد.

ولما كان شيخنا معطاء فياضاً في العلم، لا يطلب منه محاضرة أو كلمة داخل الرياض أو خارجها إلا وافق بنفس رضية، رجوته أن أتشرف بصحبته في بعضها، إذ هو مبارك الصحبة، محمود الشيم، حميد السجايا، فوافق مدعواً له بالتوفيق والسداد، وكنت في طريقنا إلى المحاضرة أعرض عليه ما أشكل علي من كلام بعض أهل العلم، وأحياناً أعرض عليه بعض الأسئلة، فيتفضل بالإجابة والتوضيح والشرح، فيزول ما التبس علي فهمه، ثم عرضت عليه مع طول الطريق في بعض المحاضرات داخل الرياض والسفر في بعضها الآخر أن أقرأ عليه شيئاً من متون العلم ويشرحه، فوافق جزاه الله خير الجزاء، فلله دره ما أرحب صدره، وأكثر صنائعه، وبدأت بالقراءة عليه تارة في السيارة، وتارة في الطائرة، وأحياناً في السكن خارج الرياض، وكان حفظه الله وأدام بركته علينا يشرح ارتجالاً، وبدون سابق تحضير واستعداد، حتى أتممنا بحمد الله وفضله ومنته تسجيل شرح هذه المتون. ثم فرغت هذه الأشرطة وعرضتها على سماحته فكتب لها مقدمات، واقترحت أن تسمى هذه الشروح «سلسلة شروح الطريق» إذ كما ذكرت كان شرحها في الطريق حضراً وسفراً، فوافق نفعنا الله بعلمه على هذا الاسم.

وكان قصدي من هذه التسمية أن يعلم القارئ أن الشيخ متعنا الله بصحته كان يشرح ارتجالاً من ذاكرته ومما حفظه قديماً، ومع ذلك زادت بعض شروح

المتون على مائة وستين صفحة كهذا الشرح، ولو استعد الشيخ للشرح لرأى القارئ أضعاف هذا العدد، ولكن حال دون تحضير الشيخ واستعداده مشاغله الكثيرة، وأعباؤه الجسيمة، ومحاضراته، وندواته، وأحاديثه، وكلماته في المساجد والمناسبات وبعض المجلات، ودوراته العلمية في مناطق كثيرة، وفتح بابه للناس لقضاء حوائجهم، ودروسه اليومية الصباحية والمسائية، فلا عجب أن كان حفظه الله قريع دهره، وكوكب نظرائه، ولو استمع القارئ إلى أشرطة هذه الشروح وهي موجودة لرأى كيف ينقطع شرح الشيخ بضجيج بعض السيارات، وأحياناً بصوت ملاحي الطائرة وهم ينبهون الركاب على بعض الأمور، ومع ذلك كان شيخنا أدام الله نفعه يتوقف أحياناً ويكمل من حيث توقف، ورغم طول مدة التوقف أحياناً إلا أن السامع لا يحس بانقطاع في الشرح، ولا يشعر باختلاف في الصياغة أو تكرار في العبارة ونحو ذلك.

أسأل المولى جل وعلا أن يعلي أبداً شأنه، ويرفع فوق الفرقدين مكانه، إذ بأمثاله أخمد الله شهاب الباطل، وأنار بهم سبيل الحق، كما أسأله سبحانه أن يديم علينا بركته، وأن يمتعنا بسلامته وصحته، وأن يبلغه الرتب الجليلة، والمحال النفيسة، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

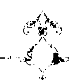
طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

مقدمة الشارح

الحمد لله الذي قدّر مقادير العباد، وهدى مَنْ شاء منهم سبيل الرشاد، وحكم على آخرين بالطرد والإبعاد، أحمده - سبحانه - وأشكره، وكلما شُكِرَ زاد، وأشهد أن لا إله إلا الله تعالى عن الشركاء والأنداد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأنه بَلَّغ ما أُنزل إليه مما يتعلق بالعمل والاعتقاد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، الذين جاهدوا في سبيل الله حق الجهاد.

أما بعد:

فإن ربنا - سبحانه - خلقنا ورزقنا، وأحسن خلق الإنسان، وميزه بالعقل والإدراك، وأعطاه السمع والبصر، وكَمَّل خلقه وعلمه البيان، وبعد ذلك كلفه بالشرع والأحكام، وفرض وأوجب عليه العبادة، وأمره بالامتثال والطاعة، ووعده على ذلك بالحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة في الحياة الأبدية في الدار الآخرة، وحيث إن البشر بأفهامهم وعلومهم وعقولهم لا يتوصلون إلى معرفة تفاصيل ما فرضه الله تعالى عليهم، وما كلفهم به من الأوامر والنواهي، والأحكام التكليفية والوضعية، فقد يقعون أو وقعوا - للجهل - في الانحراف والانصراف، والبعد عن الصواب، فعبدوا أهواءهم ما تبعوا أهواءهم وما تشتهيه الأنفس، وتميل إليه الطباع، فوقعوا في الشرك والكفر والبدع، والمحرمات في الشرع، وتركوا ما خُلقوا له، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ فلذلك أرسل إليهم الرسل؛ ليبلغوهم ما فرضه الله عليهم في الأحكام والعقائد، ولينقذوهم من الكفر والخروج عن الطاعة، وأنزل عليهم الكتب والصحف، وأمرهم بالبيان والإبلاغ لما أرسلوا به وما أنزل إليهم، وختم رسله



بأفضلهم وأشرفهم، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأنزل عليه كتابه، وهو القرآن، فيه بيان للناس، وموعظة وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وكلَّفه بأن يُبَلِّغ ما أنزل الله تعالى إليه من ربه، وأن يُبَلِّغ للناس ما أنزل إليهم، وشهد له صحابته ﷺ بأنه قد بَلَّغ وأدى الأمانة قولاً وفعلاً ونصح للأمة.

ثم تلقى عنه صحابته الكرام ما بيَّنه، وما أُنزل إليه، وعلَّموه لأولادهم وتلاميذهم ممن تلقى عنهم العلم الصحيح فيما يتعلق بالأحكام والحلال والحرام، وما يتعلق بالعقائد، أي: ما يقولونه وما يعتقدون في ربهم سبحانه وتعالى، في أسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، وقد أخبر النبي ﷺ بتفرق الأمم قبلنا وبتفرق هذه الأمة فرقًا كثيرة، منها فرقة واحدة على الحق، والبقية على الباطل إلا ما شاء الله[١]، وحذَّر أمته المتبعين له عن البدع والمحدثات في الدين[٢]، وبالأخص ما يتعلق بالعقائد التي هي أصل الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، ولما سُئل ﷺ عن الإيمان

---

(١) كما في قوله ﷺ: **(ألا إنَّ من قَبْلَكُمْ من أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هذه الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ على ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ اثنتان وَسَبْعُونَ في النَّارِ وَوَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ)**، وهذا حديث الافتراق المشهور، وقد ورد من طرق متعددة عن عدد من الصحابة - رضوان الله عليهم - بألفاظ متقاربة، فقد روي من حديث أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمرو بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبدالله، وعبدالله بن عمرو، رضي الله عنهم. أخرجه أبو داود (٤٥٩٦، ٤٥٩٧)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٣٣٢/٢)، (١٢٠/٣).

(٢) كما في حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(...وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فإن كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)**. أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٢٦/٤).

فسره بالأمور الغيبية، وهي الأركان الستة فقال: **(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)**[١]، وقد وردت الأدلة كثيرة في ذكر القدر، وما يتعلق به، ففي حديث جبريل ـ عليه السلام ـ المشهور أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ...**» إلى آخره، وأوله في صحيح مسلم[٢]: عن يحيى بن يَعْمَرَ قال: «كان أَوَّلَ من قال في الْقَدَرِ بالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ» - يعني: بالعراق - قال: «فَانْطَلَقْتُ أنا وَحُمَيْدُ بن عبد الرحمن الْحِمْيَرِي حَاجَّيْنِ أو مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لو لَقِينَا أَحَدًا من أَصْحَابِ رسول اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يقول هَؤُلاءِ في الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لنا عبداللَّهِ بن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ - رضي الله عنهما - دَاخِلا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أنا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عن يَمِينِهِ وَالآخَرُ عن شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلامَ إليّ، فقلت: أَبَا عبد الرحمن إنه قد ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يقرؤون الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ من شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ، قال: فإذا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بريء منهم وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عبداللَّهِ بن عُمَرَ لو أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ ما قَبِلَ الله منه حتى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، ثم استدل بحديث جبريل - عليه السلام - المشهور، وفيه ذكر الإيمان بالقدر مع أركان الإيمان، ومعناه: أن الله تعالى عَلِمَ مقادير المخلوقات وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، وقد أخرج الترمذي[٣] وغيره عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: «يا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ حتى تَعْلَمَ أَنَّ ما أَصَابَكَ لم يَكُنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٨)من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) برقم (٨).

(٣) برقم (٢١٥٥).

لِيُخْطِئَكَ، وما أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: **(إنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ الله الْقَلَمَ، فقال له: اكْتُبْ، قال: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كل شَيْءٍ حتى تَقُومَ السَّاعَةُ)**، يا بُنَيَّ إني سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: **(من مَاتَ على غَيْرِ هذا فَلَيْسَ مِنِّي)**»، وأخرجه أحمد[1] وأبو داود[2] وغيرهما.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في الواسطية[3] أن الإيمان بالقدر على درجتين، وقال: «وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ.

فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ».

فهذه الدرجة تتضمن العلم بكل شيء قبل وجود المخلوقات، وتتضمن كتابة ذلك كله، والدليل من آيات القرآن قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

---

(١) في المسند (٣١٧/٥).

(٢) برقم (٤٧٠٠).

(٣) (ص٣٥).

وقد أمر الله تعالى الملائكة بكتابة أعمال العباد وأقوالهم كلها مع أنها في اللوح المحفوظ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وأخبر النبي ﷺ أن النطفة إذا استقرت في الرحم يكتب الملك رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد[١]، فهذا النوع من القدر - وهو العلم - أنكره غلاة القدرية قديمًا وأولهم معبد الجهني[٢] وغيلان الدمشقي[٣]، وفيهم يقول الإمام الشافعي - رحمه الله -: «ناظروهم بالعلم فان أقروا به خصموا، وأن جحدوه كفروا»[٤]، وذلك أن الله تعالى أخبر أنه بكل شيء عليم، وأنه عالم الغيب والشهادة، ونحو ذلك، كما في الآيات السابقة، فمن أقر به خصم، حيث إنه يدخل فيه العلم السابق واللاحق، وإن أنكروا وجحدوا صفة العلم، وقالوا: إن الأمر أنف،

---

(١) كما في حديث عبدالله بن مسعود ﷺ الذي أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) هو معبد بن عبد الله بن عويمر، ويُقال: معبد بن خالد، ويُقال: معبد بن عبد الله بن عكيم، وهو أول من تكلم في القدر، ويقال: إنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يُقال له: سوس، وأخذ غيلان القدر من معبد، قال الحسن البصري: «إياكم ومعبداً فإنه ضال مضل»، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث، فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله، وقال سعيد بن عفير: «بل صلبه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم قتله». انظر: تاريخ دمشق (٥٩/٣١٢)، وتاريخ بغداد (١٠/٣)، والعبر (١/٩٢)، والبداية والنهاية (٩/٣٤).

(٣) هو غيلان بن يونس - ويقال ابن مسلم - أبو مروان القدري، كان قبطياً، أخذه هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق، وكانوا يرون أن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز عليه، قال الأوزاعي: «أول من تكلم في القدر معبد الجهني ثم غيلان بعده» اهـ. انظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٨/١٨٦).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم (ص٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/٣٤٩)، وطريق الهجرتين (٢٤٣).

أي: لا يعلم الله الأشياء حتى تقع، فقد كفروا، حيث ردوا دلالة تلك الآيات والأحاديث الكثيرة، ومنها ما أخرجه مسلم[١] عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: **(كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ)**، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: **(كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حتى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ)** أخرجه مسلم[٢]، والأدلة على ذلك كثيرة.

وقد ذكر العلماء أن هذا التقدير أربعة أنواع:

الأول: التقدير العام، وهو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض.

الثاني: التقدير السنوي، وهو ما يقدره الله تعالى كل عام في ليلة القدر، من الحوادث التي تكون في ذلك العام؛ ولذلك سميت ليلة القدر، مع أنه مكتوب في التقدير العام.

الثالث: التقدير العمري، وهو ما يُكتب على الإنسان وهو في الرحم، حيث يكتب الملك رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد.

والرابع: التقدير اليومي، وهو ما يحدثه الله تعالى في كل يوم، ودليله قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فيؤمن أهل السنة بأن الله تعالى عَلِمَ عدد الخلق، وأعمالهم وأحوالهم، قبل أن يخلقهم، بل قبل أن يخلق السموات والأرض.

---

(١) برقم (٢٦٥٣).

(٢) برقم (٢٦٥٥).

وقد اختلف العلماء هل القلم مخلوق قبل العرش، كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ، أو العرش قبله ؛ لأن في حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قوله : «**وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ**»، أي : وقت كتابة مقادير الخلائق بالقلم، وهذا هو الأرجح ؛ ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - في النونية :

والناس مختلفون في القلم الذي كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان[١]

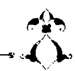
وأما القدر الذي ينكره المعتزلة ونحوهم فهو : الإيمان بمشيئة الله التامة، وقدرته العامة، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه أراد جميع ما يحدث في الكون وخلقه، فوجد بإرادته الكونية القدرية، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد، وأنه لو شاء لهدى الناس جميعًا، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر : ٣٦ - ٣٧]، وهذه الدرجة تتضمن شيئين :

الأول : أن الله تعالى أراد جميع الحوادث والأفعال وأعمال العباد.

والثاني : أنه سبحانه خلقها وأوجدها ولو شاء ما وجدت.

وقد أنكر المعتزلة هذه الدرجة، وزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم، ولا يقدر الرب تعالى أن يخلق أعمالهم، وقالوا : إنه لو خلق الكفر والشرك والبدع والمعاصي ونحوها فيهم ثم عذبهم عليها لكان ظالمًا لهم، فوصفوا الرب تعالى بالعجز عن خلق أفعال العباد، وجعلوا قدرة العبد أقوى من

(١) انظر : النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٣٧٥).



قدرة الله تعالى، فعندهم لو أراد العبد معصية والله لم يردها لغلبت إرادة العبد الضعيف لإرادة الله تعالى، وجعلوا العباد يخلقون أفعالهم، وسموا ذلك بالعدل، حتى لا يعذبهم على الكفر وقد خلقه فيهم؛ ولهذا يسمون مجوس هذه الأمة، حيث إن المجوس جعلوا المخلوقات صادرة عن اثنين وهما: النور الذي خلق الخير، والظلمة التي خلقت الشر، وهؤلاء جعلوا مع الله خالقين، أي: كل إنسان يستقل بخلق أعماله، وقد رد عليهم الأشاعرة، وناقشوهم في شبهاتهم، وما يستدلون به، وكذا رد عليهم الأئمة والجماعة من أهل السنة، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله - وغيرهما.

ثم إن طائفة من مثبتي القدر غلوا في القدر - أي: في إثباته - وزعموا أن العباد ليس لهم قدرة ولا اختيار، بل هم مجبورون على أعمالهم من الخير والشر، وأن حركة العبد قهرية، كحركة المرتعش، وكالشجرة تحركها الريح، فسلبوا العباد قدرتهم واختيارهم، وعذروهم على كفرهم وشركهم، وجعلوا ذلك عذرًا لهم في فعل المحرمات، وعُرف هؤلاء بالجبرية، فإذا نُصِحوا عن الشرك والكفر والمعاصي احتجوا بأن هذا مكتوب عليهم، وأن الله هو الذي أضلهم، وأوقعهم فيما يفعلونه من المحرمات، ولكنهم يتناقضون؛ حيث يلومون من تعدى عليهم بضرب أو قتل أو نهب أو سلب أو نحو ذلك.

ثم إن أحد هؤلاء نظم أبياتًا يحتج فيها بالقدر، ويزعم أنه لا حيلة له في مخالفة ما أراد الله تعالى به؛ حيث قضى بطرده وإبعاده، وحرمانه من الخير، فلا

حيلة له في مخالفة ما أراده الله تعالى، ولما نظم تلك الأبيات رفعها إلى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى - فأجاب عنها نظمًا وهو في مجلس واحد، فبلغ الرد عليه مائة وأربعة وعشرين بيتًا، مع أن الشيخ - رحمه الله تعالى - لم يشتهر بنظم الشعر، ثم إن هذه القصيدة لقيت قبولاً واشتهرت، وذكرها ابن عبدالهادي في العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ويستشهد ببعضها ابن القيم - رحمه الله - في بعض كتبه، وقد شرحها الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي - رحِمه الله تعالى - بشرح متوسط ولم يتيسر لي قراءته، مع أنه قد طُبع مفردًا، وطُبع ضمن مجموعة كتب ابن سعدي، ثم إن الشيخ عبدالرحمن ابن محمد الدوسري - رحمه الله تعالى - نظم على منوالها قصيدة تائية، اختصر فيها ما ذكره الشيخ، ووضح الكلام، وأجاب عن شبهات ذلك الجبري جوابًا صريحًا، ولم يتيسر لي قراءة قصيدته، مع أنه - رحمه الله تعالى - يحفظها، ويوردها في محاضراته ومناظراته، وقد طُبعت وكُتبت في أوراق خاصة، ووزعت على التلاميذ، ولعله يتيسر طبعها، ثم إن الشيخ الدكتور/ طارق بن محمد الخويطر - وفقه الله تعالى - طلب مني شرح قصيدة شيخ الإسلام التائية شرحًا متوسطًا موضحًا، ولم يتيسر لي شرحه إلا في السيارة في حال توجهنا إلى بعض المحاضرات أو الاجتماعات، فكان يقرأ عددًا من الأبيات، ثم أقوم بشرحها ارتجالاً بحسب ما أفهمه، وما يتبادر ما ظاهر اللفظ، وهو يسجل الشرح حالة الإلقاء، ولم أتمكن من قراءة شيء من المؤلفات في هذا الموضوع، وبعد إتمام الشرح لتلك القصيدة، قام الدكتور طارق الخويطر ـ وفقه الله تعالى ـ بتفريغها من الأشرطة ثم صححها، وحذف منها الخطأ والتكرار، ثم عرضها

عليَّ للتصحيح أيضًا، وقد قرأتها على عجل، وصححت ما فيها من الأخطاء المطبعية والنحوية، وحذفت ما هو تكرار يمكن أن يُستغنى عنه بما قبله أو بعده، وما فيها من سبق لسان أو خطأ معنوي، وقد وقع فيها تكرار كثير في مواضع متعددة، حيث إن شرحها كان في رحلات متعددة، وفي أيام متفرقة، بحيث يغيب عني ما قد قلته وشرحته في الأيام السابقة، وحيث إن القصيدة فيها أيضًا شيء من التكرار للإيضاح، وإظهار المعنى المراد، وقطع شبهة المنازع، وحيث إن شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - نظمها في مجلس واحد، فإن نظمه لم يكن على قافية موحدة، وكذا نظم السائل، وبالجملة فإن الشيخ - رحمه الله - قد أوضح الجواب الصحيح، وفند الشبهة، وأزال العذر، وبيَّن أن خلق الله تعالى لأفعال العباد لا ينفي أن للعباد قدرة تامة على أقوالهم وأفعالهم، وإن كانت خافية علينا؛ ولهذا يُقال: «إن القدر سر الله تعالى في خلقه»، وقد لا يظهر هذا السر للعباد إلا في الآخرة؛ ولهذا تحير كثير من أهل الكلام، وصوبوا طريقة المعتزلة في أن العبد يخلق فعله، وصوبوا أيضًا طريقة الأشاعرة الذين لا يثبتون إلا ما يُسمى عندهم الكسب، والحق أن ما ذكره الله تعالى من إثبات المشيئة والقدرة للعبد، بحيث تنسب إليه أعماله، حتى يُثاب عليها أو يُعاقب، هو الصواب، ولو كان العبد مسلوب القدرة لبطلت الشريعة، ولم يكن لإرسال الرسل فائدة، ونحن نحيل على كتب العلماء الأجلاء في هذا الباب، ففي فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عدة رسائل مطبوعة في المجلد الثامن، ولابن القيم - رحمه الله - كتاب موسع اسمه (شفاء العليل)، ومن طلب الحق وجده وعرفه.

ونسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، وأن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويعز الإسلام والمسلمين، ويذل الشرك والمشركين، ويظهر دينه على الأديان كلها، إنه على كل شيء قدير، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن إبراهيم الجبرين

عضو الإفتاء المتقاعد

١٠/٣/١٤٢٩هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة الشرح

الحمد لله الذي قدر مقادير العباد، وهدى من يشاء منهم سبيل الرشاد، وحكم على آخرين بالطرد والإبعاد، أحمده سبحانه وأشكره وكلما شكر زاد، وأشهد أن لا إله إلا الله تعالى عن الشركاء والأنداد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأنه بلغ ما أنزل إليه مما يتعلق بالعمل والإعتقاد، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في سبيل الله حق الجهاد.

أما بعد فإن ربنا سبحانه خلقنا ورزقنا، وأحسن خلق الإنسان، وميزه بالعقل والإدراك، وأعطاه السمع والبصر، وكمل خلقه وعلمه البيان، وبعد ذلك كلفه بالشرع والأحكام وفرض وأوجب عليه العبادة، وأمره بالامتثال والطاعة، ووعده على ذلك الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة في الحياة الأبدية في الدار الآخرة، وحيث أن البشر بأفهامهم وعلومهم وعقولهم لا يتوصلون إلى معرفة تفاصيل ما فرضه الله تعالى عليهم وما كلفهم به من الأوامر والنواهي والأحكام التكليفية والوضعية فقد يقعون أو وقعوا للجهل في الإنحراف والإنفراف والبعد عن الصواب فعبدوا أهواءهم واتبعوا ما أهواءهم وما تشتهيه الأنفس وتميل إليه الطباع فوقعوا في الشرك والكفر والبدع والمحرمات في الشرع وتركوا ما خلقوا له وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا فلذلك أرسل إليهم الرسل ليبلغوهم ما فرضه الله عليهم في الأحكام والعقائد وليننذوهم من الكفر والخروج عن الطاعة وأنزل عليهم الكتب والصحف وأمرهم بالبيان والإبلاغ لما أرسلوا به وما أنزل إليهم، وختم رسله بأفضلهم وأشرفهم نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأنزل عليه هذا كتابه وهو القرآن فيه بيان للناس وموعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وكلفه أن يبلغ ما أنزل الله تعالى إليه من ربه وأن يبلغ للناس ما نزل إليهم وشهد له صحابته رضي الله عنهم بأنه قد بلغ وأدى الأمانة قولًا وفعلًا ونصح للأمة ثم تلقى عنه صحابته الكرام ما بينه وما أنزل إليه وعلموه لأولادهم وتلاميذهم ممن تلقى عنهم العلم الصحيح فيما يتعلق بالأحكام والحلال والحرام وما يتعلق بالعقائد أي ما يقولونه وما يعتقدونه في ربهم سبحانه وتعالى في أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بتفرق الأمم قبلنا وبتفرق هذه الأمة فرقًا كثيرة منها فرقة واحدة على الحق والبقية على الباطل إلا ما شاء الله، وحذر أمته المتبعين له عن البدع والمحدثات في الدين، وبالأخص ما يتعلق بالعقائد التي هي أصل الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، ولما سئل عن الإيمان فسره بالأمور الغيبية وهي الأركان الستة فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وقد وردت الأدلة الكثيرة في ذكر القدر وما يتعلق به ففي حديث جبريل المشهور أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله إلى آخره، وأوله في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال بالقدر معبد الجهني يعني في العراق قال: فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألناه عن ما يقول هؤلاء؟ فوفق لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما داخلًا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي، وظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف؟ فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني،

والذي نفسي بيده لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ثم استدل بحديث جبريل المشهور وفيه ذكر الإيمان بالقدر مع أركان الإيمان، ومعناه أن الله تعالى علم مقادير المخلوقات وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، وقد روى الترمذي وغيره عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» يا بني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»، ورواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الواسطية أن الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين، فالدرجة الأولى الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، ثم كتب ذلك في اللوح المحفوظ، فهذه الدرجة تتضمن العلم بكل شيء قبل وجود المخلوقات، وتتضمن كتابة ذلك كله، والدليل من آيات القرآن قول الله تعالى: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) [الحج]

وقوله تعالى: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وقال تعالى: (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) [فاطر] وقال تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) وقد أمر الله الملائكة بكتابة أعمال العباد وأقوالهم كلها مع أنها في اللوح المحفوظ، ولذلك قال تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن النطفة إذا استقرت في الرحم يكتب الملك رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فهذا النوع من القدر وهو العلم أنكره غلاة القدرية قديماً وأولهم معبد الجهني وغيلان الدمشقي، وفيهم يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا، وذلك أن الله تعالى أخبر أنه بكل شيء عليم، وأنه عالم الغيب والشهادة، ونحو ذلك كما في الآيات السابقة، فمن أقر به خصم حيث أنه يدخل فيه العلم بالسابق واللاحق، وإن أنكروا وجحدوا صفة العلم وقالوا: إن الأمر أنف أي لا يعلم الله الأشياء حتى تقع، فقد كفروا حيث ردوا دلالة تلك الآيات والأحاديث الكثيرة، ومنها ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» قال: «وكان عرشه على الماء»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس» رواه مسلم، والأدلة عليه كثيرة، وقد ذكر العلماء أن هذا التقدير أربعة أنواع (الأول) التقدير العام وهو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض (والثاني) التقدير السنوي وهو ما يقدره الله تعالى كل عام في ليلة القدر من الحوادث التي تكون في ذلك العام، ولذلك سميت ليلة القدر، مع أنه مكتوب في التقدير العام (الثالث) التقدير العمري وهو ما يكتب على الإنسان وهو في الرحم حيث يكتب الملك رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد (والرابع) التقدير اليومي وهو ما يحدثه الله تعالى في كل يوم وليلة، قول الله تعالى: (كل يوم هو في شأن) فيؤمن أهل السنة بأن الله تعالى علم عدد الخلق وأعمالهم وأحوالهم قبل أن يخلقهم، بل قبل أن يخلق السموات والأرض، وقد اختلف العلماء: هل القلم مخلوق قبل العرش كما في حديث عبادة بن الصامت، أو العرش قبله لأن في حديث عبد الله بن عمرو قوله: «وكان عرشه على الماء» أي وقت كتابة مقادير الخلائق بالقلم، وهذا هو الأرجح، ولذلك يقول ابن القيم في النونية:

والناس مختلفون في القلم الذي كتب القضاء به من الرحمن
هل كان قبل العرش ام هو بعده قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه وقت الكتابة كان ذا أركان

وأما القدر الذي تنكره المعتزلة ونحوهم فهو الإيمان بمشيئة الله التامة، وقدرته العامة، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه أراد جميع ما يحدث في الكون، وخلقه موجد بإرادته الكونية القدرية، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد، وأنه لو شاء لهدى الناس جميعا (ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل) وهذه الدرجة تتضمن شيئين (الأول) أن الله تعالى أراد جميع الحوادث والأفعال وأعمال العباد (والثاني) أنه سبحانه خلقها وأوجدها ولو شاء ما وجدت، وقد أنكر المعتزلة هذه الدرجة، وزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم ولا يقدر الرب تعالى أن يخلق أعمالهم، وقالوا: إنه لو خلق الكفر والشرك والبدع والمعاصي ونحوها فيهم ثم عذبهم عليها لكان ظالما لهم، فوصفوا الرب تعالى بالعجز عن خلق أفعال العباد، وجعلوا قدرة العبد أقوى من قدرة الله تعالى فعندهم لو أراد العبد معصية والله لم يردها لغلبت إرادة العبد الضعيف لإرادة الله تعالى وجعلوا العباد يخلقون أفعالهم وسموا ذلك بالعدل حتى لا يعذبهم على الكفر وقد خلقه فيهم، ولهذا يسمون مجوس هذه الأمة حيث أن المجوس جعلوا المخلوقات صادرة عن اثنين، وهما النور الذي خلق الخير، والظلمة التي خلقت الشر، وهؤلاء جعلوا مع الله تعالى خالقين أي كل إنسان يستقل بخلق أعماله، وقد رد عليهم الأشاعرة، وناقشوهم في شبهاتهم وما يستدلون به وكذا رد عليهم الأئمة والجماعة، من أهل السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما، ثم إن طائفة من مثبتي القدر غلوا في القدر أي إثباته وزعموا أن العباد ليس لهم قدرة ولا اختيار بل هم مجبورون على أعمالهم من الخير والشر وأن حركة العبد قهرية كحركة المرتعش وكالشجرة تحركها الريح، فسلبوا العباد قدرتهم واختيارهم وعذروهم على كفرهم وشركهم، وجعلوا ذلك عذرا لهم في فعل المحرمات وعرف هؤلاء بالجبرية فإذا نصحوا عن الشرك والكفر والمعاصي احتجوا بأن هذا مكتوب عليهم وأن الله هو الذي أضلهم وأوقعهم فيما يفعلونه من المحرمات ولكنهم يتناقضون حيث يلومون من تعدى عليهم بضرب أو قتل أو نهب أو سلب أو نحو ذلك، ثم إن أحد هؤلاء نظم أبياتا يحتج فيها بالقدر، ويزعم أنه لا حيلة له في مخالفة ما أراد الله تعالى به حيث قضى بطرده وإبعاده وحرمانه من الخير، فلا حيلة له في مخالفة ما أراده الله تعالى، ولما نظم تلك الأبيات رفعها إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فأجابه نظما وهو في المجلس واحد، فبلغ الرد عليه مائة وأربعة وعشرين بيتا مع أن الشيخ رحمه الله تعالى لم يشتهر بنظم الشعر، ثم إن هذه القصيدة لقيت قبولا واشتهرت، وذكرها ابن عبد الهادي في العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، وسيتشهد ببعضها ابن القيم رحمه الله تعالى في بعض كتبه، وقد شرحها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى بشرح متوسط ولم يتيسر لي قراءته، مع أنه قد طبع مفردا أو طبع ضمن مجموعة كتب ابن سعدي، ثم إن الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري رحمه الله تعالى نظم على منوالها قصيدة تائية، اختصر فيها ما ذكره الشيخ، ووضح الكلام، وأجاب عن شبهات ذلك الجبري جوابا صريحا، ولم يتيسر لي قراءة قصيدته مع أنه رحمه الله تعالى يحفظها، ويوردها في محاضراته ومناظراته، وقد طبعت وكتبت في أوراق خاصة، ووزعت على التلاميذ، ولعله يتيسر طبعها، ثم إن الشيخ الدكتور طارق بن محمد الخويطر وفقه الله تعالى طلب مني شرح قصيدة شيخ الإسلام التائية، شرحا متوسطا

سواهما، ولم يتيسر لي شرحه إلا في السيارة في حال توجهنا إلى بعض المحاضرات أو الاجتماعات فكان يقرأ عددا من الأبيات، ثم أقوم بشرحها ارتجالا بحسب ما أفهمه وما يتبادر من ظاهر اللفظ وهو يسجل الشرح حالة الإلقاء، ولم أتمكن من قراءة شيء من المؤلفات في هذا الموضوع، وبعد إتمام الشرح لتلك القصيدة قام الدكتور طارق الخويطر حفظه الله تعالى بتفريغها من الأشرطة ثم صححها وحذف منها الخطأ والتكرار ثم عرضها علي للتصحيح أيضا وقد قرأتها على عجل وصححت ما فيها من الأخطاء المطبعية والنحوية وحذفت منها ما هو تكرار يمكن أن يستغنى عنه بما قبله أو بعده، وما فيها ما سببه لسان أو خطأ معنوي، وقد وقع فيها تكرار كثير في مواضع متعددة حيث أن شرحها كان في رحلات متعددة، وأيام متفرقة بحيث يغيب عني ما قد قلته وشرحته في الأيام السابقة، وحيث أن القصيدة فيها أيضا شيء من التكرار للإيضاح وإظهار المعنى المراد، وقطع شبهة المنازع وحيث أن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى نظمها في مجلس واحد، فإن نظمه لم يكن على قافية موحدة، وكذا انتظم المسائل وبالجملة فإن الشيخ رحمه الله قد أوضح الجواب الصحيح وفند الشبهة وأزال العذر وبين أن خلق الله تعالى لأفعال العباد لا ينفي أن للعباد قدرة قائمة على أقوالهم وأفعالهم وإن كانت خفية علينا ولهذا قيل إن القدر سر الله تعالى في خلقه، وقد لا يظهر هذا السر للعباد إلا في الآخرة، ولهذا تحير كثير من أهل الكلام وصوبوا طريقة المعتزلة في أن العبد يخلق فعله، وصوبوا أيضا طريقة الأشاعرة الذين لا يثبتون إلا ما يسمى عندهم الكسب والحق أن ما ذكره الله تعالى من إثبات المشيئة والقدرة للعبد بحيث تنسب إليه أعماله حتى يثاب عليها أو يعاقب هو الصواب ولو كان العبد مسلوب القدرة لبطلت الشريعة، ولم يكن لإرسال الرسل فائدة، ونحن نحيل على كتب العلماء الأجلاء في هذا الباب ففي فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية عدة رسائل مطبوعة في المجلد الثامن، ولابن القيم كتاب موسع اسمه (شفاء العليل) ومن طلب الحق وجده وعرفه، ونسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين وأن ينصر دينه ويعلي كلمته ويعز الإسلام والمسلمين ويذل الشرك والمشركين ويظهر دينه على الأديان كلها إنه على كل شيء قدير والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم ١٠/٢/١٤٢٩هـ

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم الجبرين
عضو افتاء متقاعد
[توقيع]

تائية شيخ الإسلام

سؤال عن القدر أورده أحد الذميين، فقال:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيُّ دِينِكُمْ ... تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ

إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ ... وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي

دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى ... دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي

قَضَى بِضَلالِي ثُمَّ قَالَ ارْضَ بالقضا ... فَمَا أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي فِيهِ شِقْوَتِي

فَإِنْ كُنْتُ بِالْمَقْضِيِّ يَا قَوْمُ رَاضِيًا ... فَرَبِّي لا يَرْضَى بِشُؤْمِ بَلِيَّتِي

فَهَلْ لِي رِضًا مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي ... فَقَدْ حِرْتُ دُلُّونِي عَلَى كَشْفِ حِيرَتِي

إِذَا شَاءَ رَبِّي الْكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً ... فَهَلْ أَنَا عَاصٍ فِي اتِّبَاعِ الْمَشِيئَةِ

وَهَلْ لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ؟ ... فَبِاللَّهِ فَاشْفُوا بِالْبَرَاهِينِ عِلَّتِي

فَأَجَابَ شَيْخُ الإِسْلامِ الشَّيْخُ الإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلامَةُ أَحْمَد ابْنُ تيمية مُرْتَجِلاً:

١ سُؤَالُكَ يَا هَذَا سُؤَالُ مُعَانِدٍ ... مُخَاصِمِ رَبِّ الْعَرْشِ بَارِي الْبَرِيَّةِ

٢ فَهَذَا سُؤَالٌ خَاصَمَ الْمَلأَ الْعُلا ... قَدِيمًا بِهِ إِبْلِيسُ أَصْلُ الْبَلِيَّةِ

٣ وَمَنْ يَكُ خَصْمًا لِلْمُهَيْمِنِ يَرْجِعَنْ ... عَلَى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِيًا فِي الْحَفِيرَةِ

٤ وَيُدْعَى[1] خُصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ... إِلَى النَّارِ طُرًّا مَعْشَرُ الْقَدَرِيَّةِ

٥ سَوَاءٌ نَفَوْهُ أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا ... بِهِ اللَّهَ أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ

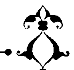
٦ وَأَصْلُ ضَلالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ

٧ فَإنهمو لَمْ يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ ... فَصَارُوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ

٨ فَإِنَّ جَمِيعَ الْكَوْنِ أَوْجَبَ فِعْلَهُ ... مَشِيئَةُ رَبِّ الْخَلْقِ بَارِي الْخَلِيقَةِ

---

(١) وفي نسخة: (وَتُدْعَى).



٩ وَذَاتُ إِلَـهِ الْخَلْـقِ وَاجِبَـةٌ بِمَـا لَهَـا مِـنْ صِـفَاتٍ وَاجِبَـاتٍ قَدِيمَـةِ

١٠ مَـشِيئَتُهُ مَـعَ عِلْمِـهِ ثُـمَّ قُـدْرَةٌ لَـوَازِمُ ذَاتِ اللَّـهِ قَاضِـي الْقَـضِيَّةِ

١١ وَإِبْدَاعُـهُ مَـا شَـاءَ مِـنْ مُبْدِعَاتِـهِ بِهَـا حِكْمَـةٌ فِيـهِ وَأَنْـوَاعُ رَحْمَـةِ

١٢ وَلَـسْنَا إِذَا قُلْنَـا جَـرَتْ بِمَـشِيئَةٍ مِـنَ الْمُنْكِـرِي آيَاتِـهِ الْمُـسْتَقِيمَةِ

١٣ بَـلِ الْحَـقُّ أَنَّ الْحُكْـمَ لِلَّـهِ وَحْـدَهُ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ الَّذِي فِي الشَّرِيعَةِ

١٤ هُـوَ الْمَلِكُ الْمَحْمُـودُ فِـي كُـلِّ حَالَـةٍ لَـهُ الْمُلْكُ مِنْ غَيْرِ انْتِقَاصٍ بِشِرْكَةِ

١٥ فَمَـا شَـاءَ مَوْلانَـا الإِلَـهُ، فَإِنَّـهُ يَكُـونُ وَمَـا لا لا يَكُـونُ بِحِيلَـةِ

١٦ وَقُدْرَتُـهُ لا نَقْـصَ فِيهَـا وَحُكْمُـهُ يَعُـمُّ فَـلا تَخْصِيصَ فِي ذِي الْقَضِيَّةِ

١٧ أُرِيـدُ بِـذَا أَنَّ الْحَـوَادِثَ كُلَّهَـا بِقُدْرَتِـهِ كَانَـتْ وَمَحْـضِ الْمَـشِيئَةِ

١٨ وَمَالِكُنَـا فِـي كُـلِّ مَـا قَـدْ أَرَادَهُ لَهُ الْحَمْدُ حَمْدًا يَعْتَلِي كُلَّ مِدْحَةِ

١٩ فَـإِنَّ لَـهُ فِـي الْخَلْـقِ رَحْمَتَـهُ سَرَتْ وَمَـنْ حِكَـمٍ فَـوْقَ الْعُقُـولِ الْحَكِيمَـةِ

٢٠ أُمُـورًا يَحَـارُ الْعَقْـلُ فِيهَـا إِذَا رَأَى مِـنَ الْحِكَـمِ الْعُلْيَـا وَكُـلِّ عَجِيبَـةِ

٢١ فَنُـؤْمِنُ أَنَّ اللَّـهَ عَـزَّ بِقُـدْرَةٍ وَخَلْـقٍ وَإِبْـرَامٍ لِحُكْـمِ الْمَـشِيئَةِ

٢٢ فَنُثْبِـتُ هَـذَا كُلَّـهُ لإِلَهِنَـا وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ مِنْ كُلِّ حِكْمَـةِ

٢٣ وَهَـذَا مَقَـامٌ طَالَمَـا عَجَـزَ الأُلَـى نَفَـوْهُ وَكَـرُّوا رَاجِعِـينَ بِحِـيرَةِ

٢٤ وَتَحْقِيـقُ مَـا فِيـهِ بِتَبْـيِينِ غَـوْرِهِ وَتَحْرِيرِ حَقِّ الْحَقِّ فِي ذِي الْحَقِيقَةِ

٢٥ هُـوَ الْمَطْلَـبُ الأَقْـصَى لِـوُرَّادِ بَحْـرِهِ وَذَا عَـسِرٌ فِـي نَظْـمِ هـذِي الْقَـصِيدَةِ

٢٦ لِحَاجَتِـهِ إِلَـى بَيَـانٍ مُحَقِّـقٍ[١] لأَوْصَـافِ مَوْلانَـا الإِلَـهِ الْكَرِيمَـةِ

٢٧ وَأَسْـمَائِهِ الْحُـسْنَى وَأَحْكَـامِ دِينِـهِ وَأَفْعَالِـهِ فِـي كُـلِّ هـذِي الْخَلِيقَـةِ

---

(١) وفي نسخة: (لِحَاجَتِهِ تَبْيِينِ عِلْمٍ مُحَقِّقٍ).

٢٨ وَهَـذَا بِحَمْـدِ اللَّـهِ قَـدْ بَـانَ ظَـاهِرًا ... وَإِلْهَامُـهُ لِلْخَلْـقِ أَفْـضَلُ نِعْمَـةِ

٢٩ وقـد قِيـلَ فِـي هَـذَا وَخُـطَّ[1] كِتَابُـهُ ... بَيَـانُ شِـفَاءٍ لِلنُّفُـوسِ الـسَّقِيمَةِ

٣٠ فَقَوْلُكَ لِمَ قَدْ شَاءَ مِثْلُ سُؤَالِ مَنْ ... يَقُـولُ فَلِـمَ قَـدْ كَـانَ فِـي الأَزَلِيَّـةِ

٣١ وَذَاكَ سُـؤَالٌ يُبْطِـلُ الْعَقْـلَ وَجْهَـهُ ... وَتَحْرِيمُـهُ قَـدْ جَاءَ فِـي كُـلِّ شِرْعَةِ

٣٢ وَفِي الْكَوْنِ تَخْصِيصٌ كَثِيرٌ يَدُلُّ مَنْ ... لَـهُ نَـوْعُ عَقْـلٍ أَنَّـهُ بِـإِرَادَةِ

٣٣ وَإِصْـدَارُهُ عَـنْ وَاحِـدٍ بَعْـدَ وَاحِـدٍ ... أَوْ الْقَـوْلُ بِـالتَّجْوِيزِ رَمْيَـةُ حِـيرَةِ

٣٤ وَلا رَيْـبَ فِـي تَعْلِيـقِ كُـلِّ مُـسَبَّبٍ ... بِمَـا قَبْلَـهُ مِـنْ عِلَّـةٍ موجِبِيَّـة

٣٥ بَلِ الشَّأْنُ فِي الأَسْبَابِ أَسْبَابُ مَا تَرَى ... وَإِصْـدَارُهَا عَـنْ الْحُكْـمِ مَحْـضُ

٣٦ وَقَوْلُـكَ: لِـمَ شَـاءَ الإِلَـهُ؟ هُوَ الَّـذِي ... أَزَلَّ عُقُـولَ الْخَلْـقِ فِـي قَعْـرِ حُفْـرَةِ

٣٧ فَـإِنَّ الْمَجُـوسَ الْقَـائِلِينَ بِخَـالِقٍ ... لِنَفْـعٍ وَرَبٌّ مُبْـدِعٍ لِلْمَـضَرَّةِ

٣٨ سُـؤَالُهُمْ عَـنْ عِلَّـةِ الـسِّرِّ أَوْقَعَـتْ ... أَوَائِلَهُـمْ فِـي شُـبْهَةِ الثَّنَوِيَّـةِ

٣٩ وَإِنَّ ملاحيـد الْفَلاسِـفَةِ الأُلَـى ... يَقُولُـونَ بِالْفِعْـلِ الْقَـدِيمِ لِعِلَّـةِ

٤٠ بَغَـوْا عِلَّـةً لِلْكَـوْنِ بَعْـدَ انْعِدَامِـهِ ... فَلَـمْ يَجِـدُوا ذَاكُـمْ فَـضَلُّوا بِـضَلَّةِ

٤١ وَإِنَّ مبـادي الـشَّرِّ فِـي كُـلِّ أُمَّـةٍ ... ذَوِي مِلَّـةٍ مَيْمُونَـةٍ نَبَوِيَّـةِ

٤٢ بخوضـهمو فِـي ذَاكُـم صَـارَ شِـرْكُهُمْ ... وَجَـاءَ دُرُوسُ الْبَيِّنَـاتِ بِفَتْـرَةِ

٤٣ وَيَكْفِيـكَ نَقْـضًا أَنَّ مَـا قَـدْ سَـأَلْتَهُ ... مِـنْ الْعُـذْرِ مَـرْدُودٌ لَـدَى كُـلِّ فِطْـرَةِ

٤٤ فَأَنْـتَ تَعِيـبُ الطَّـاعِنِينَ جَمِـيعَهُمْ ... عَلَيْـكَ وَتَـرْمِيهِمْ بِكُـلِّ مَذَمَّـةِ

٤٥ وَتَنْحَـلُ مَـنْ وَالاكَ صَـفْوَ مَـوَدَّةٍ ... وَتُـبْغِضُ مَـنْ نـاواك مِـنْ كُـلِّ فِرْقَـةِ

٤٦ وَحَـالُهُمْ فِـي كُـلِّ قَـوْلٍ وَفِعْلَـةٍ ... كَحَالِـكَ يَـا هَـذَا بِـأَرْجَح حُجَّـةِ

---

(١) وفي نسخة: (وَخُصَّ).

٤٧ وَهَبْكَ كَفَفْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ كَافِرٍ ... وَكُلِّ غَوِيٍّ خَارِجٍ عَنْ مَحَجَّةِ

٤٨ فَيَلْزَمُكَ الإِعْرَاضُ عَنْ كُلِّ ظَالِمٍ ... عَلَى النَّاسِ فِي نَفْسٍ وَمَالٍ وَحُرْمَةِ

٤٩ وَلا تَغْضَبَنْ يَوْمًا عَلَى سَافِكٍ دَمًا ... وَلا سَارِقٍ مَالاً لِصَاحِبِ فَاقَةِ

٥٠ وَلا شَاتِمٍ عِرْضًا مَصُونًا وَإِنْ عَلا ... وَلا نَاكِحٍ فَرْجًا عَلَى وَجْهِ غِيَّةِ

٥١ وَلا قَاطِعٍ لِلنَّاسِ نَهْجَ سَبِيلِهِمْ ... وَلا مُفْسِدٍ فِي الأَرْضِ فِي كُلِّ وِجْهَةِ

٥٢ وَلا شَاهِدٍ بِالزُّورِ إِفْكًا وَفِرْيَةً ... وَلا قَاذِفٍ لِلْمُحْصَنَاتِ بِزَنْيَةِ

٥٣ وَلا مُهْلِكٍ لِلْحَرْثِ وَالنَّسْلِ عَامِدًا ... وَلا حَاكِمٍ لِلْعَالَمِينَ بِرِشْوَةِ

٥٤ وَكُفَّ لِسَانَ اللَّوْمِ عَنْ كُلِّ مُفْسِدٍ ... وَلا تَأْخُذَنْ ذَا جُرْمَةٍ بِعُقُوبَةِ

٥٥ وَسَهِّلْ سَبِيلَ الْكَاذِبِينَ تَعَمُّدًا ... عَلَى رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ جَاءٍ بِفِرْيَةِ

٥٦ وَإِنْ قَصَدُوا إِضْلالَ مَنْ يَسْتَجِيبُهُمْ ... يَرُومُ فَسَادَ النَّوْعِ ثُمَّ الرِّيَاسَةِ

٥٧ وَجَادِلْ عَنْ الْمَلْعُونِ فِرْعَوْنَ إِذْ طَغَى ... فَأُغْرِقَ فِي الْيَمِّ انْتِقَامًا بِغَضْبَةِ

٥٨ وَكُلِّ كَفُورٍ مُشْرِكٍ بِإِلَهِهِ ... وَآخَرَ طَاغٍ كَافِرٍ بِنُبُوَّةِ

٥٩ كَعَادٍ ونمروذ وَقَوْمٍ لِصَالِحٍ ... وَقَوْمٍ لِنُوحٍ ثُمَّ أَصْحَابِ الايْكَةِ

٦٠ وَخَاصِمْ لِمُوسَى ثُمَّ سَائِرِ مَنْ أَتَى ... مِنَ الأَنْبِيَاءِ مُحْيِيًا لِلشَّرِيعَةِ[1]

٦١ عَلَى كَوْنِهِمْ قَدْ جَاهَدُوا النَّاسَ إِذْ بَغَوْا ... وَنَالُوا مِنْ الْعَاصِي بَلِيغَ الْعُقُوبَةِ

٦٢ وَإِلا فَكُلُّ الْخَلْقِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ ... وَلَحْظَةِ عَيْنٍ أَوْ تَحَرُّكِ شَعْرَةِ

٦٣ وَبَطْشَةِ كَفٍّ أَوْ تَخَطِّي قَدِيمَةٍ ... وَكُلِّ حِرَاكٍ بَلْ وَكُلِّ سَكِينَةِ

٦٤ همو تَحْتَ أَقْدَارِ الإِلَهِ وَحُكْمِهِ ... كَمَا أَنْتَ فِيمَا قَدْ أَتَيْتَ بِحُجَّةِ

٦٥ وَهَبْكَ رَفَعْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ فَاعِلٍ ... فِعَالَ رَدًى طَرْدًا لِهَذِي الْمَقِيسَةِ

---

(١) وفي نسخة: (مِنْ الأَنْبِيَا أو مُحْيِيًا لِلشَّرِيعَةِ).

٦٦ فَهَلْ يُمْكِنن رَفْعُ الْمَلامِ جَمِيعِهِ ... عَنِ النَّاسِ طُرًّا عِنْدَ كُلِّ قَبِيحَةِ

٦٧ وَتَرْكُ عُقُوبَاتِ الَّذِينَ قَدْ اعْتَدَوْا ... وَتَرْكُ الْوَرَى الإِنْصَافَ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ

٦٨ فَلا تَضْمَنَنْ نَفْسٌ وَمَالٌ بِمِثْلِهِ ... وَلا يعْقَبَنْ عَادٍ بِمِثْلِ الْجَرِيمَةِ

٦٩ وَهَلْ فِي عُقُولِ النَّاسِ أَوْ فِي طِبَاعِهِمْ ... قَبُولٌ لِقَوْلِ النَّذْلِ مَا وَجْهُ حِيلَتِي

٧٠ وَيَكْفِيكَ نَقْضًا مَا بِجِسْمِ ابْنِ آدَمٍ ... صَبِيٍّ وَمَجْنُونٍ وَكُلِّ بَهِيمَةِ

٧١ مِنَ الأَلَمِ الْمَقْضِيِّ فِي غَيْرِ حِيلَةِ ... وَفِيمَا يَشَاءُ اللَّهُ أَكْمَلُ حِكْمَةِ

٧٢ إِذَا كَانَ فِي هَذَا لَهُ حِكْمَةٌ فَمَا ... يُظَنُّ بِخَلْقِ الْفِعْلِ ثُمَّ الْعُقُوبَةِ

٧٣ وَكَيْفَ وَمِنْ هَذَا عَذَابٌ مُوَلَّدٌ ... عَنَ الْفِعْلِ فِعْلِ الْعَبْدِ عِنْدَ الطَّبِيعَةِ

٧٤ كَآكِلِ سُمٍّ أَوْجَبَ الْمَوْتَ أَكْلُهُ ... وَكُلٌّ بِتَقْدِيرٍ لِرَبِّ الْبَرِيَّةِ

٧٥ فَكُفْرُكَ يَا هَذَا كَسُمٍّ أَكَلْتَهُ ... وَتَعْذِيبِ نَارٍ مِثْلُ جَرْعَةِ غُصَّةِ

٧٦ أَلَسْتَ تَرَى فِي هَذِهِ الدَّارِ مَنْ جَنَى ... يُعَاقَبُ إِمَّا بالقضا أَوْ بِشِرْعَةِ؟

٧٧ وَلا عُذْرَ لِلْجَانِي بِتَقْدِيرِ خَالِقٍ ... كَذَلِكَ فِي الأُخْرَى بِلا مَثْنَوِيَّةِ

٧٨ وَتَقْدِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ لِلذَّنْبِ مُوجِبٌ ... لِتَقْدِيرِ عُقْبَى الذَّنْبِ إلا بِتَوْبَةِ

٧٩ وَمَا كَانَ مِنْ جِنْسِ الْمَتَابِ لِرَفْعِهِ ... عَوَاقِبَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ الْخَبِيثَةِ

٨٠ كَخَيْرٍ بِهِ تُمْحَى الذُّنُوبُ وَدَعْوَةٍ ... تُجَابُ مِنَ الْجَانِي وَرَبٌّ شَفَاعَةِ

٨١ وَقَوْلُ حَلِيفِ الشَّرِّ إِنِّي مُقَدَّرٌ ... عَلَيَّ كَقَوْلِ الذَّنْبِ هذي طَبِيعَتِي

٨٢ وَتَقْدِيرُهُ لِلْفِعْلِ يَجْلِبُ نِقْمَةً ... كَتَقْدِيرِهِ الأَشْيَاءَ طُرًّا بِعِلَّةِ

٨٣ فَهَلْ يَنْفَعَنْ عُذْرُ الْمَلُومِ بِأَنَّهُ ... كَذَا طَبْعُهُ أَمْ هَلْ يُقَالُ لِعَثْرَةِ

٨٤ أَمِ الذَّمُّ وَالتَّعْذِيبُ أَوْكَدُ لِلَّذِي ... طَبِيعَتُهُ فِعْلُ الشُّرُورِ الشَّنِيعَةِ

٨٥ فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تُجَابَ بِمَا عَسَى ... يُنْجِيكَ مِنْ نَارِ الإِلَهِ الْعَظِيمَةِ

٨٦ فَدُونَكَ رَبَّ الْخَلْقِ فَاقْصِدْهُ ضَارِعًا ... مُرِيدًا لأَنْ يَهْدِيَكَ نَحْوَ الْحَقِيقَةِ

٨٧ وَذَلِّلْ قِيَادَ النَّفْسِ لِلْحَقِّ وَاسْمَعَنْ ... وَلا تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ

٨٨ وَمَا بَانَ مِنْ حَقٍّ فَلا تَتْرُكَنَّهُ ... وَلا تَعْصِ مَنْ يَدْعُو لأَقْوَمِ شِرْعَةِ

٨٩ وَدَعْ دِينَ ذَا الْعَادَاتِ لا تَتْبَعَنَّهُ ... وَعُجْ عَنْ سَبِيلِ الأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ

٩٠ وَمَنْ ضَلَّ عَنْ حَقٍّ فَلا تَقْفُوَنَّهُ ... وَزِنْ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ بالمعدلية

٩١ هُنَالِكَ تَبْدُو طَالِعَاتٌ مِنْ الْهُدَى ... تُبَشِّرُ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْحَنِيفِيَّةِ

٩٢ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ذَاكَ إِمَامُنَا ... وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ

٩٣ فَلا يَقْبَلُ الرَّحْمَنُ دِينًا سِوَى الَّذِي ... بِهِ جَاءَتْ الرُّسْلُ الْكِرَامُ السَّجِيَّةِ

٩٤ وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحَاشِرُ الْخَاتَمُ الَّذِي ... حَوَى كُلَّ خَيْرٍ فِي عُمُومِ الرِّسَالَةِ

٩٥ وَأَخْبَرَ عَنْ رَبِّ الْعِبَادِ بِأَنَّ مَنْ ... غَدَا عَنْهُ فِي الأُخْرَى بِأَقْبَحِ خَيْبَةِ

٩٦ فهذي دِلالاتُ الْعِبَادِ لِحَائِرٍ ... وَأَمَّا هُدَاهُ فَهُوَ فِعْلُ الرُّبُوبِيَّةِ

٩٧ وَفَقْدُ الْهُدَى عِنْدَ الْوَرَى لا يُفِيدُ مَنْ ... غَدَا عَنْهُ بَلْ يَجْرِي[1] بِلا وَجْهِ حُجَّةِ

٩٨ وَحُجَّةُ مُحْتَجٍّ بِتَقْدِيرِ رَبِّهِ ... تَزِيدُ عَذَابًا كَاحْتِجَاجِ مَرِيضَةِ

٩٩ وَأَمَّا رِضَانَا بِالْقَضَاءِ فَإِنَّمَا ... أُمِرْنَا بِأَنْ نَرْضَى بِمِثْلِ الْمُصِيبَةِ

١٠٠ كَسَقَمٍ، وَفَقْرٍ ثُمَّ ذُلٍّ وَغُرْبَةِ ... وَمَا كَانَ مِنْ مُؤْذٍ بِدُونِ جَرِيمَةِ

١٠١ فَأَمَّا الأَفَاعِيلُ الَّتِي كُرِهَتْ لَنَا ... فَلا تُرْتَضَى مَسْخُوطَةٌ لِمَشِيئَةِ[2]

---

(١) وفي نسخة: (يُجْزى)، وفي نسخة أخرى: (يُخزى).

(٢) وفي نسخة:

(فَأَمَّا الأَفَاعِيلُ الَّتِي كُرِهَتْ لَنَا ... فلا نص يأتي في رضاها لطاعة)

١٠٢ وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ لا رِضًا ... بِفِعْلِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ(١)

١٠٣ وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِقَضَائِهِ ... وَلا نَرْتَضِي الْمَقْضِيَّ أَقْبَحَ خَصْلَةِ

١٠٤ وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِإِضَافَةٍ ... إِلَيْهِ وَمَا فِينَا فَنُلْقِي بِسَخْطَةِ

١٠٥ كَمَا أَنَّهَا لِلرَّبِّ خَلْقٌ وَأَنَّهَا ... لِمَخْلُوقِهِ لَيْسَتْ كَفِعْلِ الْغَرِيزَةِ

١٠٦ فَنَرْضَى مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ خَلْقُهُ ... وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْهِ اكْتِسَابِ الْخَطِيئَةِ

١٠٧ وَمَعْصِيَةُ الْعَبْدِ الْمُكَلَّفِ تَرْكُهُ ... لِمَا أَمَرَ الْمَوْلَى وَإِنْ بِمَشِيئَةِ

١٠٨ فَإِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ حَقٌّ مَقَالُهُ ... بِأَنَّ الْعِبَادَ(٢) فِي جَحِيمٍ وَجَنَّةِ

١٠٩ كَمَا أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ هَكَذَا ... بَلِ الْبُهْمُ فِي الآلامِ أَيْضًا وَنِعْمَةِ

١١٠ وَحِكْمَتُهُ الْعُلْيَا اقْتَضَتْ مَا اقْتَضَتْ مِنْ ... فُرُوقٍ بِعِلْمٍ ثُمَّ أَيْدٍ وَرَحْمَةِ

١١١ يَسُوقُ أُولِي التَّعْذِيبِ بِالسَّبَبِ الَّذِي ... يُقَدِّرُهُ نَحْوَ الْعَذَابِ بِعِزَّةِ

١١٢ وَيَهْدِي أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ نَعِيمِهِمْ ... بِأَعْمَالِ صِدْقٍ فِي رَجَاءٍ وَخَشْيَةِ

١١٣ وَأَمْرُ إِلَهِ الْخَلْقِ بَيِّنُ مَا بِهِ ... يَسُوقُ أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ السَّعَادَةِ

١١٤ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ أَثَّرَتْ ... أَوَامِرُهُ فِيهِ بِتَيْسِيرِ صَنْعَةِ

١١٥ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ لَمْ يَنَلْ ... بِأَمْرٍ وَلا نَهْيٍ بِتَقْدِيرِ شِقْوَةِ

١١٦ وَلا مَخْرَجٌ لِلْعَبْدِ عَمَّا بِهِ قَضَى ... وَلَكِنَّهُ مُخْتَارُ حُسْنٍ وَسَوْأَةِ

١١٧ فَلَيْسَ بِمَجْبُورٍ عَدِيمُ الإِرَادَةِ ... وَلَكِنَّهُ شَاءٍ بِخَلْقِ الإِرَادَةِ

١١٨ وَمِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ خَلْقُ مَشِيئَةٍ ... بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الْهُدَى بِالضَّلالَةِ

---

(١) في بعض النسخ من هذا البيت:

(فَإِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ لَمْ يَرْضَهَا لَنَا ... فَلا نَرْتَضِي مَسْخُوطَةً لِمَشِيئَةِ)

وفي نسخة: (بمشيئة).

(٢) وفي نسخة: (بِأَنَّ عِبَادِي).

١١٩	فَقَوْلُـكَ هَـلْ أخْتَـارُ تَرْكًـا لِحِكْمَـةٍ	كَقَوْلِـكَ هَـلْ أخْتَـارُ تَـرْكَ الْمَـشِيئَةِ
١٢٠	وَأخْتَـارُ أنْ لا أخْتَـارُ فِعْـلَ ضَـلالَةٍ[1]	وَلَـوْ نِلْـتَ هَـذَا التَّـرْكَ فُـزْتَ بِتَوْبَـةِ
١٢١	وَذَا مُمْكِـــنٌ لَكِنَّـــهُ مُتَوَقِّـــفٌ	عَلَـى مَـا يَـشَاءُ اللَّـهُ مِـنْ ذِي الْمَـشِيئَةِ
١٢٢	فَـدُونَك فَـافْهَمْ مَـا بِـهِ قَـدْ أجَبْـتُ مِـنْ	مَعَـانٍ إذَا انْحَلَّـتْ بِفَهْـمٍ غَرِيـزَةِ
١٢٣	أشَـارَتْ إلَـى أصْـلٍ يُـشِيرُ إلَـى الْهُـدَى	وَلِلَّـهِ رَبُّ الْخَلْـقِ أكْمَـلُ مِدْحَـةِ
١٢٤	وَصَـلَّى إلَـهُ الْخَلْـقِ جَـلَّ جَلالُـهُ	عَلَى الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ

(١) وفي نسخة: (وَأخْتَار لا أخْتَار فِعْلَ ضَلالَةٍ).

سؤال عن القدر أورده أحد الذميين، فقال:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيٌّ دِينِكُمْ تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ
إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي
دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي
قَضَى بِضَلالِي ثُمَّ قَالَ ارْضَ بالقضا فَمَا أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي فِيهِ شِقْوَتِي
فَإِنْ كُنْتُ بِالْمَقْضِيِّ يَا قَوْمُ رَاضِيَا فَرَبِّي لا يَرْضَى بِشُؤْمِ بَلِيَّتِي
فَهَلْ لِي رِضَا مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي فَقَدْ حِرْتُ دُلُّونِي عَلَى كَشْفِ حِيرَتِي
إِذَا شَاءَ رَبِّي الْكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً فَهَلْ أَنَا عَاصٍ فِي اتِّبَاعِ الْمَشِيئَةِ
وَهَلْ لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ؟ فَبِاللَّهِ فَاشْفُوا بِالْبَرَاهِينِ عِلَّتِي

الشرح:

قوله:

(أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ)..

فهو يخاطب علماء الدين، أي: علماء الإسلام.

قوله:

..(ذِمِّيٌّ دِينِكُمْ)..

وصف نفسه بأنه ذمِّي، أي: أنه من أهل الذمة، ويظهر أنه من هؤلاء الملاحدة الذين يطعنون في الشرع بهذا الاحتجاج، وهم كثيرون، حيث يحتجون دائمًا بالقدر على المعاصي، وهذا ليس خاصًا بالذمي، ولاشك أن الذميين ليسوا من المسلمين، ولكن المصيبة أن يعتقد هذا الاعتقاد الكثير من المسلمين،

ممن هم في الحقيقة من الزنادقة، أو من المنافقين، وليسوا من أهل السنة، وليسوا من أهل الذمة.

قوله:

(تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةٍ)

يخبر بأنه تحير في هذه المسألة، وهذه المسألة بدأها بقوله:

(إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ)

يعني: أن الله قضى بكفره وقدره وكتبه عليه.

قوله:

(وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي)

أي: ولم يرضه منه، بل كتب وقدر أنه شقي وأنه كافر، ثم قال:

(فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي؟)

أي: هل لي حيلة؟ يعترض على الله، وعلى قضائه وقدره.

ثم يقول:

(دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي)

هكذا يمثل القدر، فيقول: إن الله تعالى دعاه، وأنه حرمه وأنه سد الباب دونه، كإنسان دعاه ربه ولم يوفقه، أو إنسان دُعي للدخول مع باب ولما أقبل على الباب سدوا دونه ذلك الباب، فلا يمكن أن يكون له دخول، هكذا يمثل.

ثم يقول:

(قَضَى بِضَلالِي)

يقول: كتب أني ضال، ومع ذلك يقول: (ارْضَ)، أي: ارض بما كتبته عليك، أنك من الضالين.

(فَمَا أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي فِيهِ شِقْوَتِي)

أي: هل أرضى بما فيه شقائي وحرماني من الخير.

قوله:

(فَإِنْ كُنْتُ بِالْمَقْضِيِّ يَا قَوْمُ رَاضِيًا)

أي: إذا كنت بالمقضي راضيًا بما قُدر عليَّ.

قوله:

(فَرَبِّي لا يَرْضَى بِشُؤْمِ بَلِيَّتِي)

أي: لا يرضى بأن أكون مبتلى.

قوله:

(فَهَلْ لِي رِضَا، مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي)

أي: هل أرضى بشيء فيه شقائي لا يرضاه سيدي.

قوله:

(فَقَدْ حِرْتُ)

أي: تحيرت.

قوله:

(دُلُّونِي عَلَى كَشْفِ حِيرَتِي)

هكذا يمثل أنه ليس له رضا، فهل له رضا بما ليس يرضاه ربي؟

قوله:

(إِذَا شَاءَ رَبِّي الْكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً)

يعني: أنه شاء مني أن أكون كافرًا.

قوله:

(فَهَلْ أَنَا عَاصٍ فِي اتِّبَاعِ الْمَشِيئَةِ)

أي: هل أنا عاصٍ إذا اتبعت مشيئته؟

قوله:

(وَهَلْ لِي اخْتِيَارٌ أَنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ)

أي: ليس لي اختيار أن أخالف ما حكم به عليَّ، ثم قال:

(فَبِاللَّهِ فَاشْفُوا بِالْبَرَاهِينِ عِلَّتِي)

لاشك أن هذا السؤال هو سؤال الجبرية الذين يدّعون أن العباد مجبرون، وأنه ليس لهم أي اختيار، بل كل مجبور على ما هو عليه، بمعنى: أنهم ليس لهم قدرة، وليس لهم اختيار، وليس لهم أية حركة يقدرون عليها، بل أفعالهم ليست اختيارية.

كأنه يقول: الله تعالى قضي عليَّ أني كافر، وكتب ذلك عليَّ قبل أن يخلقني، ثم بعد ذلك أمرني، فكيف امتثل؟ وكيف أقدر على مخالفة ما كتبه عليَّ؟ وما قدره عليَّ؟ وهل أتمكن أن أكون مؤمنًا، وأن أكون طائعًا، وأن أكون ممتثلاً وقد قدر عليَّ ما كتبه؟.

لاشك أن هذا اعتراض على الله، فالناس انقسموا في هذا الباب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين اعتمدوا هذا، وعذروا الناس، عذروا الكافر، والمبتدع، والعاصي، وقالوا: معذورون؛ لأنهم وافقوا ما قُدر، القدر الذي كتبه الله قد وافقوه، فليس عليهم لوم، وليس عليهم عذاب، وإذا عذبهم الله فإنه ظالم لهم؛ لأنه هو الذي قدر ذلك عليهم، وهو الذي خلق فيهم هذه القدرة، وهؤلاء هم الجبرية، القدرية المجبرة.



القسم الثاني: الذين أنكروا قدرة الله، وهم المعتزلة، فيقولون: إن الله ليس بقادر على كل شيء، لا يقدر على الهداية، ولا على الإضلال، ولا على التوفيق، ولا على الحرمان، بل العباد هم الذين يقدرون على ذلك، فالعبد هو الذي يقدر بنفسه، وهو الذي يخلق فعله، وليس لله قدرة عليه فتُنسب إليه أفعاله طاعات ومعاص، ويسمون ذلك عدلاً، يقولون: حتى لا يُعذب الله من قدَّر عليهم هذه المقادير، وكتب ذلك وخلق ذلك فيهم، وخلق فيهم الكفر فكيف يعذبهم؟ فنحن نقول: الله لا يقدر على الهداية ولا على الإضلال، بل العباد هم الذين يضلون أنفسهم، وهم الذين يقدرون على كل ما كتبه عليهم، يقدرون على كل ما أُمروا به، فالعبد هو الذي يخلق أفعاله، ليس لله قدرة على خلق أفعال العباد.

فهؤلاء مع الجبرية في طرفي نقيض.

القسم الثالث: أهل السنة الذين توسطوا، وقالوا: إن الله تعالى جعل للعباد قدرة، ولهم إرادة، وهذه القدرة والإرادة لا تخرج عن مشيئة الله، ولو لم يكن لهم هذه القدرة ما كُلفوا، وما أُمروا، وما نُهوا، فدلّ على أن الله منحهم قدرة، وأعطاهم قوة يزاولون بها الأعمال وتُنسب إليهم، ولكن تلك القدرة خاضعة لقدرة الله تعالى، ولإرادته.

فَأَجَابَ شَيْخُ الإِسْلامِ الشَّيْخُ الإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلامَةُ أَحْمَد ابْنُ تيمية مُرْتَجِلاً: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:

١ـ سُــؤَالُكَ يَــا هَــذَا سُــؤَالُ مُعَانِــدٍ مُخَاصِمِ رَبِّ الْعَرْشِ بَارِي الْبَرِيَّـةِ

٢ـ فَهَــذَا سُــؤَالٌ خَاصَــمَ الْمَــلأَ الْعُــلا قَــدِيمًا بِــهِ إِبْلِــيسُ أَصْــلُ الْبَلِيَّــةِ

٣ـ وَمَــنْ يَــكُ خَــصْمًا لِلْمُهَــيْمِنِ يَــرْجِعَنْ عَلَــى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِيًــا فِــي الْحَفِـيرَةِ

الشرح:

ثم إن شيخ الإسلام – رحمه الله – لما رُفع إليه هذا السؤال اشتغل بالجواب، والناس حوله، وظنوا أنه يكتب الجواب نثرًا، وإذا هو يكتبه نظمًا، في جلسته جعل يكتب حتى انتهى، فكتب هذه الأبيات التي زادت على مائة وعشرين بيتًا في جلسة واحدة، ولما كتبها نسخها الحاضرون، ودفعها إلى ذلك السائل، فانقطعت حجة ذلك السائل وتبين أنه متعنت.

فيقول شيخ الإسلام –رحمه الله –:

(سُــؤَالُكَ يَــا هَــذَا سُــؤَالُ مُعَانِــدٍ)

أي: أن هذا سؤال معاند؛ لأنك لا تعتقد ذلك في كل أفعالك، بل أنت عارف ولكنك تعاند أمر الله، وتعاند خلقه، وأنت من الذين يخاصمون ربهم، ومن خاصم الله تعالى فإنه مخصوم.

قوله:

فَهَــذَا سُــؤَالٌ خَاصَــمَ الْمَــلأَ الْعُــلا قَــدِيمًا بِــهِ إِبْلِــيسُ أَصْــلُ الْبَلِيَّــةِ

أي: وهذا السؤال أول من أثاره إبليس، فإنه احتج بالقدر على الله تعالى، ذكر ذلك في احتجاجه بقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]،

ذكر أن الله تعالى هو الذي أغواه، وهو الذي أوقعه في هذه الغواية، مع أنه قد أعطاه قوة، وأعطاه قدرة، ولكن احتج بذلك، واعترف بعد ذلك بأن الله تعالى خلقه بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فدلَّ على أنه معترف بأن الله تعالى هو الذي خلقه، ومع ذلك ينسب ربه إلى أنه هو الذي أغواه، ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾، أي: أوقعتني في الغواية، لم يعترف بأنه هو الذي غوي، مع أن الله تعالى نسب إليه الامتناع بقوله: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، هذه أفعاله، فدلَّ على أنه عمل هذه الأعمال باختياره وبقدرته التي أعطاه الله، والتي منحه، فامتنع من السجود، وخالف أمر الله تعالى، فدلَّ على أن عنده قدرة، حيث إن الله تعالى أنكر عليه امتناعه، وكذلك أيضًا التزم أن يغوي بني آدم بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٦، ١٧]، فدلَّ على أنه عنده قدرة، وأنه متمكن، مع أن الله تعالى هو الذي سلطه.

ثم يقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: **(وَمَنْ يَكُ خَصْمًا لِلْمُهَيْمِنِ)**، يعني: من يكن خصمًا لله تعالى، يخاصم الله تعالى، يخاصم رب العرش العظيم.

قوله: **(يَرْجِعَنْ عَلَى أُمِّ رَأْسٍ هَاوِيًا فِي الْحَفِيرَةِ)**، أي: لابد أن ينتكس على أم رأسه، ولابد أن يخصم، ولابد أن تنقطع حجته، ولابد أن يهوي في الحفيرة، وقد عبَّر بالحفيرة: إما عن الخيبة والخسران، وإما أنها النار في الدار الآخرة.

فلذلك يعتبر الذين يخاصمون الله خاسرين؛ لأنهم يخاصمون رب العرش، ومن خاصم الله تعالى فإنه ذليل ومهين، وحجته داحضة عند الله تعالى.

فهذا السائل لما أظهر أنه يحتج بالقضاء والقدر، بيَّن الشيخ - رحمه الله - أن هذا سؤال الجبرية الذين يحتجون بالقدر على ما هم عليه من المعاصي، ويكثر هذا في مثل هؤلاء، إذا سُئلوا عن شيء من المعاصي التي يفعلونها، أو الطاعات التي يتركونها، يحتجون بالقدر فيقولون: الله ما هدانا، وقد ذكر الله تعالى هذه الحجة أيضًا في كتابه عن كثير من المشركين.

وعلى كل حال نعرف أن الاحتجاج بالقدر حجة داحضة، وأن هؤلاء كأنهم ينكرون أوامر الله، وينكرون شرعه ودينه، وينكرون ثوابه وعقابه، ويدعون أن لهم الحجة على الله تعالى، فلذلك يُنظر في أحوالهم، ويُبين لهم خطؤهم الظاهر، وبعدهم عن الصواب.

٤ وَيُدْعَى خُصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مُعَادِهِمْ	إِلَى النَّارِ طُرًّا مَعْشَرُ الْقَدَرِيَّةِ
٥ سَوَاءٌ نَفَوْهُ أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا	بِهِ اللَّهَ أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ
٦ وَأَصْلُ ضَلالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ	هُوَ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ
٧ فَإنهمو لَمْ يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ	فَصَارُوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ
٨ فَإِنَّ جَمِيعَ الْكَوْنِ أَوْجَبَ فِعْلَهُ	مَشِيئَةُ رَبِّ الْخَلْقِ بَارِي الْخَلِيقَةِ
٩ وَذَاتُ إِلَهِ الْخَلْقِ وَاجِبَةٌ بِمَا	لَهَا مِنْ صِفَاتٍ وَاجِبَاتٍ قَدِيمَةِ
١٠ مَشِيئَتُهُ مَعَ عِلْمِهِ ثُمَّ قُدْرَةٌ	لَوَازِمُ ذَاتِ اللَّهِ قَاضِي الْقَضِيَّةِ
١١ وَإِبْدَاعُهُ مَا شَاءَ مِنْ مُبْدِعَاتِهِ	بِهَا حِكْمَةٌ فِيهِ وَأَنْوَاعُ رَحْمَةِ

الشرح:

يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - في جوابه عن شبهة ذلك القدري الذي يحتج بالقدر:

(وَيُدْعَى خُصُومُ اللَّهِ)

جعلهم خصومًا لله؛ لأنهم يحتجون بقضاء الله وقدره على أفعالهم، وعلى معاصيهم.

قوله:

(إِلَى النَّارِ طُرًّا)

أي: ويدعون إلى النار كلهم **(مَعْشَرُ الْقَدَرِيَّةِ)**.

قوله:

(سَوَاءٌ نَفَوْهُ)

الذين نفوه هم المعتزلة، الذين نفوا قدرة الله، وادعوا أن الله لا يقدر على أن

يهدي من يشاء، ولا يضل من يشاء، وأن قدرة العباد أقوى من قدرة الله، وجعلوا العبد مستقلاً بفعله استقلالاً كليًا؛ ولأجل ذلك يسميهم العلماء مجوس هذه الأمة، أي: أنهم أشبهوا المجوس؛ لأنهم أثبتوا مع الله خالقين، فإن المجوس جعلوا الكون صادرًا عن اثنين: صادر عن خالقي الخير والشر، وأما هؤلاء فإنهم جعلوا كل شخص يخلق فعله مستقلاً، وسلبوا ربهم القدرة والمشيئة والتصرف في خلقه؛ فلأجل ذلك يسمون مجوس هذه الأمة، وعلى هذه الطريقة يسمون المعتزلة والقدرية، فإنهم ينفون قدرة الله، كما يصرح بذلك كبيرهم الذي هو القاضي عبدالجبار الهمداني، وحصل بينه وبين علماء أهل السنة مناظرات ومجادلات، وبكل حال فإنهم قد نفوا قدرة الله تعالى على كل شيء، ينكرون قول الله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قوله:

(أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا بِهِ اللَّهَ)

وهم القدرية المجبرة الذين يدعون أن العبد مجبور على أفعاله، ليس له أي اختيار، وهؤلاء هم الذين على طريقة هذا اليهودي الذي يحتج بالقدر، فإنهم يحتجون بالقدر على ذنوبهم، وعلى معاصيهم، ولكنهم لا يحتجون به دائمًا.

قوله:

(أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ)

وهم القدرية الذين يمارون بالقدر في شرع الله تعالى، ويحتجون به كما ذكر الله عن المشركين أنهم قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]، فيقولون الله قادر على أن يُطعم هؤلاء الفقراء، فكيف نطعمهم، وما علموا بأن الله تعالى

هو الذي أعطاكم وهو الذي خولكم، وهو الذي أنعم عليكم، وقد أمركم بأن تنفقوا مما آتاكم الله، وقال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، هكذا يحتجون بمشيئة الله، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، يقولون: إن الله هو الذي شاء أعمالنا، فهؤلاء كلهم خصوم الله الذين يحتجون بقدر الله على المعاصي، أي: على أفعالهم.

ولاشك أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي هو ما ذكره هذا الذي سمى نفسه ذميًا، فهو يحتج بالقدر، وبكتابة المقادير، وبقدرة الله، يحتج بذلك كله على نفي قدرة الله، فهؤلاء هم الجبرية الذين تكلم هذا الذمي أو هذا الجبري على لسانهم، وقد كثر أمثال هذا الذين يحتجون بالقدر، يقول أحدهم محتجًا بالقدر:

طرحوا اللحم للبزاة ... على ذروتي عدن

ثم لاموا البزاة إذ ... خلعوا فيهم الرسن

لو أرادوا صلاحنا ... ستروا وجهك الحسن[1]

هكذا يحتج بالقدر، فيقول: إن مثل قدرة الله وتقديره كمثل قوم وضعوا اللحم للبزاة التي هي الطيور التي تصيد، ثم أطلقوا الرسن لها، ومع ذلك يلومونها لماذا تأكلين من هذه اللحوم؟ وهم الذين وضعوا اللحم أمامها، وهم الذين أطلقوا لها الأرسان يعني الحبال، فكأنه يقول: إن الله تعالى هو الذي فتننا، حيث إنه جعل أمامنا هذه الزينات، وهذه الوجوه الحسنة، كذلك هذه الشهوات؛ فلذلك يقول:

---

(١) هذه الأبيات لأبي بكر الشبلي. انظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٩٥).

لــــــو أرادوا صـــــــلاحنا ســــــتروا وجهــــــك الحـــــسن

ولاشك أن هذا احتجاج بالقدر على فعل الذنوب والمعاصي، ويقول آخر يمثل القدر:

ألقـاه في البحـر مكتوفًـا وقـال لـه إيـــاك إيـــاك أن تبتـــل بالمـــاء[1]

أي أنه لا قدرة له فإن الله تعالى هو الذي أوقعه في هذه المعاصي، وخلق هذه المعاصي فيه، وجعله منبعثًا عليها، فمثله كمثل إنسان مكتوف الأيدي والأرجل، وألقي في البحر وقيل له: لا تبتل بالماء، كيف لا يبتل بالماء وهو في البحر؟!!.

ولاشك أن هؤلاء نفوا الشريعة، ونفوا الأمر والنهي، وعلى قولهم يكون الشرع باطلاً، وأن الله تعالى لا يأمر أحدًا، ولا ينهى أحدًا، وأن كل ما أمر الله به فإنه لا استطاعة للعبد أن يفعله، فهذا مذهب هؤلاء الذين يحتجون بالقدر على فعل المعاصي، ولكنهم مع ذلك يتناقضون؛ ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - في ميميته[2]:

وعنـــد مـــراد الله تفنـــى كميـــتٍ وعنـد مـراد الـنفس تـسدي وتلحـم
وعنـد خـلاف الأمـر تحتج بالقـضا ظهـيرًا علـى الـرحمن للجـبر تـزعم
تنـزه تلـك الـنفس عـن سوء فعلـها وتغتـــاب أقـــدار الإلـــه وتظلـــم

أي: أنك عند مراد النفس، وعند شهوات النفس تسدي وتلحم، وتفعل وتجتهد؛ لتحقق مراد النفس، ولتحقق شهوتك وما تميل إليه، وأما عند مراد الله فإنك تتكاسل، وتتفانى، وتحتج بالقدر، وتقول: لو أراد الله أن أهتدي

---

(١) يُنسب هذا البيت إلى عبد الغني بن إسماعيل الدمشقي، المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف. انظر ديوانه (ص٢٨).

(٢) انظر: طريق الهجرتين (٩٤).

لهداني، وهذا تناقض منك؛ لأنك تجتهد فيما ينفع نفسك في الأمور الشهوانية، وتتكاسل عن ما أمر الله تعالى به من العبادات ونحوها.

ثم يقول الشيخ - رحمه الله -:

وَأَصْلُ ضَلالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ هُوَ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ

الخوض في أفعال الله، ثم عدم قبول الفعل إلا إذا كان معللاً، هذا أصل ضلال الخلق، والواجب أن يقبلوا أوامر الله، ولو لم تظهر لهم العلة والحكمة التي في ذلك الأمر، عليهم أن يقتنعوا وأن يرضوا بما قدر الله، وبما أمر به، فيسلموا لأمر الله، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، والأكثر من العبادات غير معروف الحكمة فيه، إنما نقول هو من الأفعال التعبدية، أمر الله تعالى بالتيمم عند فقد الماء، ومع ذلك لا نعرف في هذا حكمة ولا علة إلا أنه الامتثال لأمر الله تعالى، فالخوض في أفعال الله، وطلب الحكمة والعلة ونحو ذلك في كل فعل هذا أصل ضلال الخلق، ونعرف أيضًا أن ربنا سبحانه لا يأمر بأمر إلا وله فيه حكمة، ولا ينهى عن شيء إلا وفيه أيضًا حكمة ومصلحة ظاهرة، وإن كانت العقول لا تدركها، ولكن إذا لم ندركها قلنا: هذا من الأفعال التعبدية، مثل قوله ﷺ: **(إذا اسْتَيْقَظَ أحدكم من نَوْمِهِ فلا يَغْمِسْ يَدَهُ في الإِنَاءِ حتى يَغْسِلَهَا ثَلاثًا)**(١)، فقد أمر النبي ﷺ الذي يستيقظ من النوم أن يغسل يديه قبل أن يدخلهما في الإناء، ولو كانتا نظيفتين، ولو كانتا في كيس، وهذا من الأفعال التعبدية.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم واللفظ له (٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم يقول - رحمه الله -:

فـإنهمو لـمْ يَفْهَمُـوا حِكْمَـةً لَـهُ   فَـصَارُوا عَلَـى نَـوْعٍ مِـنْ الْجَاهِلِيَّـةِ

أي: لم يفهموا حكمة الله فيما أمر به ونهى عنه، حيث إن الواجب عليهم إذا علموا الحكمة أن يقنعوا بها، وإذا لم يفهموها فعليهم أن يرضوا ويسلموا، ولا يكونون كأهل الجاهلية، والجاهلية هم الذين يحتجون بالقدر، ويقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، هذا فعل الجاهلية، والواجب أنهم إذا لم يفهموا حكمة الله في الأوامر والنواهي أن يقولوا: رضينا وسلمنا، ويستسلموا لأمر الله.

ثم يقول - رحمه الله -:

فَـإِنَّ جَمِيـعَ الْكَـوْنِ أَوْجَـبَ فِعْلَـهُ   مَـشِيئَةُ رَبِّ الْخَلْـقِ بَـارِي الْخَلِيقَـةِ

قوله:

(جَمِيعَ الْكَوْنِ)

أي: من الحوادث، وجميع ما في هذا الكون من الموجودات، ومن الأفعال إنما حدث بمشيئة الله، أوجب فعله مشيئة رب الخلق، ففي الحديث: **(مَا شَاءَ الله كَان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ)**[1]، فالأصل أنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فلو أراد الله أن يهتدي الخلق لحصل ذلك؛ لقول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٧٥٦) مرفوعًا، من طريق عبد الحميد مولى بني هاشم عن أمه عن إحدى بنات النبي ﷺ. وأخرجه الطبراني في الدعاء (ص١٢٨) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤]، أخبر بأنه إذا شاء اهتدوا، وكذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ولكن حكمته اقتضت أن يكون في الخلق عصاة ومخالفون، وهذا من حكمة الله، ولا يخرجون عن مشيئته، ولو شاء الله لهدى الناس جميعًا.

وقوله - رحمه الله -:

فَإِنَّ جَمِيعَ الْكَوْنِ أَوْجَبَ فِعْلَهُ ... مَشِيئَةُ رَبٌّ الْخَلْقِ بَارِي الْخَلِيقَةِ

يعني: حصل بمشيئة الله، فمشيئة الله لا يخرج عنها شيء، هذا هو الأصل.

ثم قال - رحمه الله -:

وَذَاتُ إِلَهِ الْخَلْقِ وَاجِبَةٌ بِمَا ... لَهَا مِنْ صِفَاتٍ وَاجِبَاتٍ قَدِيمَةِ

قوله:

(وَذَاتُ إِلَهِ الْخَلْقِ)

أي: يجب أن نثبت لله تعالى الذات.

قوله:

(وَاجِبَةٌ بِمَا لَهَا مِنْ صِفَاتٍ)

أي: نثبت له أيضًا الصفات، ونقول: إن الله يوصف بكل ما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به نبيه ﷺ، وصفات الله قديمة، ولكن أفعاله تجدد، فنقول: إن الله عليم بما كان، وبما لم يكن كيف يكون إذا كان، فإن علم الله في الحوادث قديم، عالمٌ بكل ما يحدث قبل أن يحدث، وكذلك أيضًا كلامه سبحانه قديم النوع متجدد الآحاد، بمعنى أنه يحدث من خلقه ما يشاء، ويتكلم بما يشاء، يتكلم إذا شاء كيف يشاء، وهكذا أيضًا بقية صفاته فإنها واجبة، وهي أيضًا قديمة.

يقول الطحاوي - رحمه الله -: «لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ اسْتَفَادَ اسْمَ الْخَالِقِ، وَلا بِإِحْدَاثِ الْبَرِيَّةِ اسْتَفَادَ اسْمَ الْبَارِي، لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلا مَخْلُوقَ»[1]، وكذلك ليس بعد رزقهم استفاد اسم (الرازق)، فهو الخالق قبل أن يوجد المخلوقون؛ لأنه متصف بذلك كما يشاء، وكذلك (الرحيم)، قبل أن يوجد الخلق الذين يرحمهم، وكذلك (العليم)، قبل أن يوجد الخلق الذي يعلمهم، ويعلم ما هم عليه، فكل ذلك من صفات الله.

قوله:

(وَاجِبَاتٍ قَدِيمَةِ)

أي: كل صفات الله قديمة النوع وتجدد آثارها.

يقول: **مَشِيئَتُهُ مَعَ عِلْمِهِ ثُمَّ قُدْرَةٌ لَوَازِمُ ذَاتِ اللَّهِ قَاضِي الْقَضِيَّةِ**

فقوله:

(لَوَازِمُ ذَاتِ اللَّهِ)

أي: المشيئة والعلم والقدرة من لوازم ذات الله، التي يلزم إثباتها، وأنها لوازم لذات الله، فلا تنفك ذات الله عن المشيئة، له المشيئة التامة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي: مشيئتكم لا تحصل إلا بعد مشيئة الله، وقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، لما ذكر أنهم قد يذكرون ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦]، لا يحصل لهم ذكر وتذكر إلا بمشيئة الله، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير: ٢٩].

---

(١) انظر: العقيدة الطحاوية (ص٢٠).

وكذلك علمه وأنه بكل شيء عليم، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، وكذلك يعلم السر وأخفى من السر، عليم بالأسرار، وبالخفايا، وبما تحت الأرض، وبما فوق السماء، وبحالات جميع الخلق، يعلم كل ذلك، ولا يخفى عليه شيء، عليم بأفعال العباد، وقد قال النبي ﷺ: **(كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ)**[1]، أي: كتب الله مقادير الخلائق قبل إيجاد المخلوقات، كتب مقاديرهم وكتب أعمالهم وأعمارهم وما أشبه ذلك.

كذلك صفة القدرة هي من لوازم ذات الله، فيُقال: إن الله علم بأفعال العباد، وبعدما علمها شاءها، فكل ما يحصل فإنه قد شاءه الله، مشيئة قدرية، لا يحتج بها على المعاصي والطاعات، ثم بعد ذلك قدرها، وقدر وجودها، هذه الثلاث: المشيئة والعلم والقدرة لوازم ذات الله.

قوله:

(قَاضِي الْقَضِيَّةِ)

أي: لوازم لذات الله تعالى الذي قضى وقدر جميع ما في الكون، فيؤمن أهل السنة بهذا كله، بأن هذه من لوازم ذات الله، يلزم مَنْ أثبت لله تعالى ذاتًا أن يثبت المشيئة، وأن يثبت العلم، وأن يثبت القدرة، وأن يؤمن بالقضاء، وأن الله تعالى هو الذي قضى كل شيء، قاضي كل ما في الكون **(قَاضِي الْقَضِيَّةِ)**.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَإِبْدَاعُهُ مَا شَاءَ مِنْ مُبْدِعَاتِهِ ... بِهَا حِكْمَةٌ فِيهِ وَأَنْوَاعُ رَحْمَةِ

---

(١) سبق تخريجه.

فكل ما أبدعه في هذا الكون، وكل ما أوجده، وكل ما أحدثه وخلقه فإن لله تعالى فيه حكمة، ولو خفيت على بعض الخلق، فلا يُحتج بخلق الشرور ونحوها، لا يُقال: لماذا خلق الحيات مع أن فيها ضرر والعقارب ونحوها؟ لله تعالى فيها حكمة، أو يُقال: لماذا خلق السباع الضارية التي تعدو على الناس وتفترس الأموال؟ لله تعالى في ذلك حكمة، وإن خفيت على بعض الناس، فالله تعالى حكيم في كل ما خلقه وقدره، فإبداعه من مبدعاته، وإيجاده كل ما شاء من الموجودات لله تعالى فيه حكمة، وفيها أيضًا رحمة، فكل هذه المخلوقات لله تعالى فيها حكمة، ذُكر عن بعض العلماء أنه سأله أحد الملوك: لماذا خلق الله الذباب مع أنه مستقذر؟ فقال: ليذل به الجبابرة والمتكبرين، هؤلاء يأنفون من هذه الأشياء؛ فلذلك لا يستطيعون أن يتحفظوا عن وقوع هذا الذباب على وجوههم، وعلى أطعمتهم ونحو ذلك مع أنه مستقذر، هذا التماس لهذه الحكمة في خلق الذباب، وكذلك بقية الحشرات التي خلقها منها ما فيه منفعة ظاهرة، كمنفعة ما يخرج من النحل الذي يخرج منه هذا العسل، وكذلك غيره مما لله تعالى فيه حكمة ظاهرة جلية، وإن لم تكن ظاهرة عند كل أحد، فلله في جميع مبدعاته حكمة ورحمة، يرحم بها عباده كما يشاء.

فلذلك لا يُعترض على الله في شيء من مخلوقاته ومبدعاته، بل يقول: إن الله تعالى حكيم، والحكيم هو: الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، ويرضى ويسلم بكل ما أمر الله به، فيقول: آمنا بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله، بذلك يكونون من المستسلمين لأمر الله، الذين عملوا بقوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

١٢ وَلَسْنَا إِذَا قُلْنَا جَرَتْ بِمَشِيئَةٍ مِنَ الْمُنْكِرِي آيَاتِهِ الْمُسْتَقِيمَةِ
١٣ بَلْ الْحَقُّ أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ الَّذِي فِي الشَّرِيعَةِ
١٤ هُوَ الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ فِي كُلِّ لَهُ الْمُلْكُ مِنْ غَيْرِ انْتِقَاصٍ بِشِرْكَةِ
١٥ فَمَا شَاءَ مَوْلانَا الإِلَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ وَمَا لا لا يَكُونُ بِحِيلَةِ
١٦ وَقُدْرَتُهُ لا نَقْصَ فِيهَا وَحُكْمُهُ يَعُمُّ. فَلا تَخْصِيصَ فِي ذِي الْقَضِيَّةِ

الشرح:

يَرُد - رحمه الله - في هذه الأبيات التي تتعلق بالقضاء والقدر على بعض الجبرية الذين يحتجون بالقدر على المعاصي:

وَلَسْنَا إِذَا قُلْنَا جَرَتْ بِمَشِيئَةٍ مِنَ الْمُنْكِرِي آيَاتِهِ الْمُسْتَقِيمَةِ

أي: إذا قلنا: جرت هذه الأمور بمشية الله، أو بإرادته لا ننكر آياته المستقيمة التي فيها أوامر ونواهي، والتي فيها عقوبة وثواب، وأمر ونهي بل نقول: إن الطاعات كلها جرت بمشيئة الله وبإرادته الكونية القدرية، فإن مشيئة الله تعالى عامة لكل ما يحدث في الكون، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وفي الحديث: **(ما شَاءَ الله كان وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ)**[1]، فالمشيئة التي هي: إرادة قدرية كونية سابقة في الأزل، يدخل فيها جميع ما يحدث في هذا الكون من الطاعات، ومن المعاصي وما أشبه ذلك، فأهل السنة هم الذين يثبتون هذه المشيئة، ويقولون: إن هذه المعاصي وهذه الطاعات وهذه الحوادث

---

(١) سبق تخريجه.

كلها لا تحصل إلا بعد مشيئة الله ومع ذلك يقرون بآياته التي فيها الأوامر والنواهي، ويعترفون بأن الله تعالى فرض فرائض، وألزم بها عباده، ووعدهم على امتثالها الأجر الكبير، وتوعد على تركها بالعقاب الأليم، وأعطاهم من القوة والقدرة ما يزاولون به تلك الأعمال، ويُلامون على التفريط فيها، فلا ننكر آياته المستقيمة التي فيها أمر الله؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وهذا وعيد، وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، هذا أيضًا فيه وعيد لمن خالف، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فكل هذه آيات مستقيمة تدل على أن الله يأمر وينهى، ولا يأمر إلا من عنده قدرة على الامتثال بالفعل أو بالترك.

ثم يقول - رحمه الله -:

بَلْ الْحَقُّ أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ... لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ الَّذِي فِي الشَّرِيعَةِ

قال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، أي: جميع ما يحكم به في هذا الكون، فإنه نافذ، وقال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: هو الخالق لكل شيء، الرازق لمن يشاء، فيدخل في الخلق جميع الموجودات، وجميع أفعال العباد، ولا ينافي ذلك الأمر، أي أنه تعالى يأمر عباده، وإن كان قد خلقهم وخلق أفعالهم، فالله تعالى خالقهم، وخالق أفعالهم، ومع ذلك أمرهم ونهاهم ومكن لهم وقواهم، وأعطاهم ما يستطيعون به مزاولة تلك الأعمال، ومع ذلك نعترف بأن له الحكم، وكذلك له الحكمة في كل ما يأمر به، وأنه هو الخالق لأفعال العباد، كما في قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، ولا ينافي خلق الأفعال إضافتها إليهم؛ لأنهم هم الذين باشروها، وأنهم يثابون على المباشرة، ويعاقبون على المخالفة، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾، الذي في هذه الشريعة.

ثم يقول - رحمه الله -:

هُوَ الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ فِي كُلِّ حَالَةٍ لَـهُ الْمُلْـكُ مِـنْ غَيْـرِ انْتِقَـاصٍ بِـشِرْكَةِ

قوله: **(هُوَ الْمَلِكُ)**، أي: أن الله تعالى هو الملك، ومن أسمائه الملك الجبار المتكبر، وهو مالك المُلك، قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فالمُلك ملكه، والخلق خلقه، والتصرف له وحده، لا أحد يقدر على أن يتصرف لنفسه بشيء يخالف أمر الله.

قوله:

(الْمَحْمُودُ فِي كُلِّ حَالَةٍ)

أي: أنه هو المحمود في كل حالة، يُحمد على الفعل الذي يسر، وعلى الفعل الذي يضر، يُحمد على الخير، ويحمد على الشر؛ لأنه لا يقدر قدرًا إلا وفيه مصلحة، فالأمراض التي يقضيها على العباد فيها مصلحة؛ وذلك لأنهم يعتبرون، ويعلمون أنه هو الذي يسلط على هذا فقرًا وفاقة وجوعًا وجهدًا وعُريًا، ويسلط على هذا أمراضًا وعاهات ومصائب، ويسلط على هذا عدوًا يعذبه وينكل به ونحو ذلك، كذلك ينعم على هذا بالنعم العظيمة، يتفضل عليه بالصحة، وبالخير، ويتفضل عليه بالمال والبنين، يعطيه ما يسأله، فهو الملك المحمود على كل حالة، على خيره وعلى ما يقدره من الأضرار؛ لأن له في ذلك حكمة وعبرة لأولي الألباب.

قال:

(لَهُ الْمُلْكُ مِنْ غَيْرِ انْتِقَاصٍ بِشِرْكَةٍ)

أي: له الملك وله الحمد كما في الأذكار، يقول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، يعني: الملك كله، وملكه لا يملكه غيره، ولا يشاركه غيره، فلا يشاركه أحد في ملكه، بل يعطي من يشاء، ويمنع ويفقر من يشاء، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ولا أحد يشاركه في شيء من ملكه، فمُلك الملوك مُلك مؤقت، يزول بعد مدة، إما بموت ذلك الملك، وإما بنزعه عنه وتسليط من يتنزع عنه ذلك الملك.

ثم يقول - رحمه الله -:

فَمَا شَاءَ مَوْلانَا الإِلَهُ فَإِنَّهُ ... يَكُونُ وَمَا لا لا يَكُونُ بِحِيلَةِ

وهذا معنى ما جاء في الحديث: (مَا شَاءَ الله كَان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ)[1].

فقوله:

(فَمَا شَاءَ مَوْلانَا الإِلَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ)

أي: ما أراده كونًا وقدرًا مِن خير وشر، وأمراض وعاهات، ومِن نعم وفضل، ونصر وتقوية، وإغناء وإعطاء، وصحة ورفاهية، فإنه يكون.

وقوله:

(وَمَا لا لا يَكُونُ بِحِيلَةِ)

أي: الذي لا يشاؤه لا يكون ولو احتال من احتال، ولو حاول من يحاول ذلك؛ لأنه هو الذي يقدر الأشياء؛ ولهذا جاء تعليق مشيئة العباد بمشيئة الله

---

(١) سبق تخريجه.

تعالى، في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦]، فأخبر بأن لهم مشيئة يتذكرون بها ويتعقلون، ثم قيد مشيئتهم بمشيئة الله، ما يذكرون ولا يقدرون على التذكر إلا إذا شاء الله ذلك وأراده كونًا وقدرًا، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الإنسان: ٣٠، ٢٩]، فأخبر بأن لهم مشيئة، من شاء أن يتذكر ويستقيم على طاعة الله، قدر على ذلك، ولكن لا يقدر إلا بعد مشيئة الله، وبعد قضائه وقدره، وبعد خلقه ذلك الفعل وتقديره، وكذلك قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فهذه ثلاثة مواضع في سور من المفصل يذكر لهم مشيئة، ثم يذكر أن تلك المشيئة لا تحصل إلا بعد مشيئة الله تعالى؛ ولهذا يقول - رحمه الله -:

فَمَا شَاءَ مَوْلانَا الإِلَهُ فَإِنَّهُ ... يَكُونُ وَمَا لا لا يَكُونُ بِحِيلَةِ

(وما لا)، أي: وما لم يشأ لا يكون ولو كان هناك حيل، ولو كان هناك قوات.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ:

وَقُدْرَتُهُ لا نَقْصَ فِيهَا وَحُكْمُهُ ... يَعُمُّ فَلا تَخْصِيصَ فِي ذِي الْقَضِيَّةِ

أي: قدرة الله كاملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، هكذا أخبر تعالى، فعمم ذلك، عمم أنه قادر على كل شيء، لا يخرج عن قدرته شيء، بل هو القادر، ولا نقص في قدرته، ولا يعجزه شيء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، أي: أنه سبحانه لا يعجزه شيء كائنًا من كان، وكذلك العباد في قوله: ﴿وَمَا أَنتُم

بِمُعْجِزِينَ ﴾[الأنعام: ١٣٤]، يعني: بقادرين على أن تعجزوا الله وأن تخرجوا عن قدرته، فالله يقدر أن يقلب هذا الخلق، وأن يفني هذا الكون، وأن يميت هؤلاء الأحياء، وأن يحول بينهم وبين تصرفاتهم، يقدر على أن يغير ما هم فيه إلى غيره، يقدر على أن يميتهم جميعًا، أو يخرسهم جميعًا، أو نحو ذلك، لا نقص في هذه القدرة.

وكذلك حكمه يعم، **(فَلا تَخْصِيصَ)**، أي: لا تخصيص في قدرة الله، ولا تخصيص أيضًا في حكمه فإنه الحكيم العليم، فكل شيء حكم به فإنه كائن، الحكم لله، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، إذا حكم على هؤلاء بالعذاب، أو حكم على هؤلاء بالموت، أو حكم على هؤلاء بالفقر، أو بالغنى، فإن حكمه يعم كل من قدره عليه، فلا تخصيص في هذا الحكم، ولا تخصيص في هذه القضايا، ولا تخصيص في القدرة، بل الله قادر على كل شيء، ولا تخصيص في الحكم بل حكمه عام لكل شيء يحدث، وأنه سبحانه ما قدر إلا ما فيه مصلحة، ولو كانت في الظاهر فيها شيء من المخالفة ونحوها.

١٧	أُرِيــدُ بِــذَا أَنَّ الْحَــوَادِثَ كُلَّهَــا	بِقُدْرَتِــهِ كَانَــتْ وَمَحْــضِ الْمَــشِيئَةِ
١٨	وَمَالِكُنَــا فِــي كُــلِّ مَــا قَــدْ أَرَادَهُ	لَهُ الْحَمْدُ حَمْدًا يَعْتَلِي كُلَّ مدحة
١٩	فَـإِنَّ لَـهُ فِـي الْخَلْـقِ رَحْمَتَـهُ سَرَتْ	وَمَنْ حِكَـمٍ فَـوْقَ الْعُقُـولِ الْحَكِيمَـةِ
٢٠	أُمُـورًا يَحَـارُ الْعَقْـلُ فِيهَـا إِذَا رَأَى	مِـنَ الْحِكَـمِ الْعُلْيَـا وَكُـلٌّ عَجِيبَـةِ
٢١	فَنُــؤْمِنُ أَنَّ اللَّــهَ عَــزَّ بِقُــدْرَةٍ	وَخَلْـقٍ وَإِبْـرَامٍ لِحُكْـمِ الْمَــشِيئَةِ
٢٢	فَنُثْبِــتُ هَــذَا كُلَّــهُ لإِلَهِنَــا	وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ مِنْ كُلِّ حِكْمَةِ

الشرح:

يقول ـ رحمه الله ـ:

أُرِيــدُ بِــذَا أَنَّ الْحَــوَادِثَ كُلَّهَــا بِقُدْرَتِــهِ كَانَــتْ وَمَحْــضِ الْمَــشِيئَةِ

أي: الحوادث كلها تكون بقدرة الله، فحوادث الأمراض كلها بقدرته، فهو على كل شيء قدير، وهو الذي قدر ذلك، وكذلك حوادث الفقر والفاقة، وحوادث المصائب في الأنفس، وفي الأموال، وفي الأهلين، كلها كائنة بقدرته؛ لأنه هو الذي يقدر هذه الأشياء، يقدر ما في الكون، وما قدره فلابد أن يكون، وما شاءه فلابد أن يحصل، فـ(**الْحَوَادِثَ كُلَّهَا بِقُدْرَتِهِ**)، أي: تكون بقدرته، (**وَمَحْضِ الْمَشِيئَةِ**)، أي: بمشيئته، فإذا أصيب الإنسان بمصيبة علم بأنها إرادة الله، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، حكمة عظيمة، أخبر بأن المصائب كلها حصلت بقدرته، وأنه كتب ذلك في الأزل، فكل الحوادث وكل المصائب، وكل الأمراض

والعاهات، وكل النعم والخيرات مكتوبة على الإنسان قبل أن يُخلق، بل قبل أن تُخلق هذه المخلوقات، فالله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، فكتب ذلك وخلقه وأراده، فأخبر بأنه قد كتب كل ما يحصل في الوجود، قال النبي ﷺ: **(إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ الله الْقَلَمَ، فقال له: اكْتُبْ، قال: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كل شَيْءٍ حتى تَقُومَ السَّاعَةُ)**[1]، فأخبر النبي ﷺ بأن القلم جارٍ بما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وفي قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، أي: عنده اللوح المحفوظ الذي كُتب فيه جميع الحوادث، وجميع الكلمات، وجميع الألفاظ، وجميع المصائب، وجميع النعم، وعدد الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم مكتوبون كلهم في ذلك الكتاب في تلك الساعة، ومكتوبة أيضًا المصائب التي تصيبهم، والنعم التي تحدث لهم؛ ولهذا أخبر بأنه عليه يسير، علمه يسير على الله؛ لأنه يعلم ما يكون، ولا يحصل شيء إلا بعد مشيئته وإرادته.

وكذلك ذكر من الحكمة: الرضا بقضاء الله وبقدره؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، أي: الحكمة أن ترضوا بما قدره الله، ولا تيأسوا من روح الله، وتعلموا أن ما أصابكم فهو بقضاء الله، فلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم فرح أشر وبطر، ولا تنسبوا ذلكم إلى حولكم وإلى طولكم وإلى قوتكم، ومع ذلك فلكم أن تفعلوا هذه الأسباب التي جعلها الله أسبابًا ظاهرة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: **(احْرِصْ على**

---

(١) سبق تخريجه.

ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلْتُ كان كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ - أو قَدَّر - اللَّهِ وما شَاءَ فَعَلَ)[1]، أي: هذا قدره وهذا تقديره الذي قدره عليّ فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فالحوادث كلها كائنة بقدرته، وكائنة بمشيئته، وهذا معنى قوله:

(وَمَحْضِ الْمَشِيئَةِ)

أي: خالصها.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَمَالِكُنَا فِي كُلِّ مَا قَدْ أَرَادَهُ ... لَهُ الْحَمْدُ حَمْدًا يَعْتَلِي كُلَّ مدحة

قوله:

(وَمَالِكُنَا)

أي: ربنا وخالقنا والمتصرف فينا وفي عباده.

قوله:

(لَهُ الْحَمْدُ)

أي: له الحمد في كل ما قد أراده، فنحمده على كل ما أراده، فكما نحمده على النعم، نحمده على المصائب، ولا يُحمد على الشر إلا الله؛ لأنه جعله لحكمة، فالشرور التي يقدرها والمصائب فيها مصالح؛ لأن العباد يعتبرون بها، ومع ذلك فإنهم مأمورون بأن يتوقوا أسباب الأخطار وما أشبهها، وأن يحرصوا على المصالح التي يعملون لها أو يرجونها، ولكن بعدما يحصل لهم مصيبة أو يفوتهم شيء، فإنهم يرضون بقدر الله، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لا تتأسفوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وتتحسروا على الشيء الذي قد فاتكم، ويقول أحدكم: لو أني فعلت، لو اشتريت كذا لربحت، أو لو أني أجد واجتهد في هذه الأعمال والحرف لربحت وسعدت، لا تقل ذلك، بل ترضى بقضاء الله، وهكذا أيضًا إذا ربحت من آثار عمل عملته، فلا تنسب ذلك إلى قوتك، بل إلى فضل الله، فتقول: هذا الربح من فضل الله، وهذا شفاء من الأمراض فضل من الله ونعمة، وهكذا جميع ما يصيبك تجعله من الله، وترضى عن الله تعالى في تصرفه، وتقول هذا قضاء الله، وهذا قدره، وهو الذي أعطانا فله الشكر، وهو الذي حرمنا فله الحمد على ذلك، فمالكنا الذي هو الرب له الحمد في كل ما قد أراده.

قوله:

(حَمْـــدًا يَعْتَلِـــي كُـــلَّ مدحـــة)

أي: حمدًا يعلو مدح المادحين، وثناء المثنين، حمدًا لا نهاية له، وقد جاء في الثناء على الله بعد الرفع من الركوع أنه يقول: (**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه**)[1]، كما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله، وجاء أيضًا أنه يقول: (**رَبَّنَا لك الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوات وَمِلْءُ الأرض، وَمِلْءُ ما شِئْتَ من شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ ما قال الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لك عَبْدٌ**)[2]، أي: أنت يا ربنا المحمود حمدًا لو كان أجسامًا لملأ هذا الكون، لملأ السماوات وملأ الأرض وملأ ما شاء الله، يدل على أنه حمد كثير يعتلي كل مدحة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي ﷺ، ومسلم (٦٠٠) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

ثم يقول - رحمه الله -:

فَإِنَّ لَهُ فِي الْخَلْقِ رَحْمَتَهُ سَرَتْ ... وَمَنْ حِكَمٍ فَوْقَ الْعُقُولِ الْحَكِيمَةِ

قوله:

(رَحْمَتَهُ سَرَتْ)

أخبر سبحانه بأن رحمته تغلب غضبه، وبهذا أخبر النبي ﷺ في قوله: **(لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي)**[1]، فرحمته سبحانه في خلقه قد سرت فهي عامة، حتى أنه يرحم الكفار، وجاء: أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: قَدِمَ على النبي ﷺ سَبْيٌ فإذا امْرَأَةٌ من السَّبْيِ قد تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فقال لنا النبي ﷺ: **(أَتُرَوْنَ هذه طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟)** قُلْنَا: لا وَهِيَ تَقْدِرُ على أَنْ لا تَطْرَحَهُ، فقال: **(لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا)**[2]، وقال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]، ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣١]، أي: في جنته وفي فضله.

قوله:

(وَمَنْ حِكَمٍ فَوْقَ الْعُقُولِ الْحَكِيمَةِ)

أي: له حكم فوق العقول الحكيمة، الحكم التي يقدرها ويفعل الأشياء لها فوق العقول، لا تدركها العقول، وقد التمس بعض العلماء قديمًا وحديثًا الحكم والمصالح التي تترتب على الأعمال الصالحة، فقالوا - مثلاً - الحكمة من

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم واللفظ له (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

الصلوات تذكر القيام بين يدي الله، الحكمة من الصلاة تذكر الوقوف بين يديه، الحكمة من الصلاة الخضوع والخشوع فيها لرب الأرباب، كذا الحكمة من الزكاة ومن الصوم، ومن سائر العبادات، وهكذا أيضًا ذكروا الحكمة في تحريم المحرمات، فقالوا: حرم الله الربا لكذا وكذا من المصالح، حرم الله الخمر لكذا وكذا من المصالح، حرم الله الزنى والسرقة وقتل المسلم ونحو ذلك لحكم يعددونها، وقد تقصر عنها الأفهام، لماذا أمر الله تعالى بالوضوء؟ في ذلك حكم، لماذا جعل التيمم يقوم مقام الوضوء؟ لله تعالى في ذلك حكم فوق العقول الحكيمة، لا تبلغه عقول العاقلين، وإنما يتكلمون ببعض ما ظهر لهم.

ثم يقول - رحمه الله -:

أُمُوراً يَحَارُ الْعَقْلُ فِيهَا إِذَا رَأَى ... مِنَ الْحِكَمِ الْعُلْيَا وَكُلٌّ عَجِيبَةِ

أي: الأمور التي يقدرها، والتي قد حكم بها، والتي قضاها على العباد سواء المصائب، أو الآفات، أو الأعمال، أو الفقر، أو الجفاف، أو اليبس، أو الموت، أو تسليط الأمراض على الأنفس وعلى العقول، أو على البهائم ونحو ذلك، أمور يحار العقل فيها، ويعجز عن إدراك الحكم فيها.

قوله:

(إِذَا رَأَى مِنَ الْحِكَمِ الْعُلْيَا)

أي: الظاهرة، فيحار العقل في كثير من الأمور التي قد يعجز العقل عن إدراك الحكم فيها.

قوله:

(وَكُلٌّ عَجِيبَةِ)

أي: كل شيء من العجائب.

فهكذا العبد إذا عرف حكمة اعتبرها وألحق بها ما يشبهها، وإذا لم يدرك الحكمة سلم لأمر الله تعالى.

ثم يقول - رحمه الله -:

فَنُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ بِقُدْرَةٍ وَخَلْقٍ وَإِبْرَامٍ لِحُكْمِ الْمَشِيئَةِ

أي: نؤمن أن الله - عز وجل - له قدرة وله خلق وإبرام، وأن ذلك لحكم المشيئة، أن الله تعالى عزيز وأنه قادر، والعزة هي: القوة والغلبة، بمعنى أنه عزيز لا يُغالب، وأنه قدير لا يخرج عن قدرته شيء، ونؤمن بالخلق والإبرام والإحكام لكل المحاسن ولكل المحامد ولكل الحوادث، أن الله عز بقدرة، يعني: موصوف بقدرة، وموصوف بخلق وإبرام، وأن ذلك لحكم أو لمصالح يشاؤها سبحانه وتعالى.

ثم يقول - رحمه الله -:

فَنُثْبِتُ هَذَا كُلَّهُ لإِلَهِنَا وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ مِنْ كُلِّ حِكْمَةِ

أي: نثبت هذا كله لإلهنا وربنا سبحانه وتعالى، ونثبت أنه سبحانه على كل شيء قدير، وأنه قدر جميع ما في الكون، نثبت الأجزاء، ونثبت القدرة، والخلق، والإبرام، والمشيئة، وكذلك أيضًا نثبت الرحمة أنه رحيم بعباده، ونثبت الحِكم التي فوق العقول، نثبت له الحمد في ذلك كله، ونثبت أن الحوادث كلها تكون بقدرته، ونثبت المشيئة وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، نثبت ذلك لإلهنا.

قوله:

(وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ مِنْ كُلِّ حِكْمَةِ)

أي: وإن لم تدركها عقولنا، نقول: إن لله تعالى في كل أمر وفي كل حادث أن في ذلك حكم، فهذا كله نثبته لإلهنا وربنا، ونقول: إنه سبحانه لا يخلق

شيئًا عبثًا ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون : ١١٥] وكذلك قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦]، أي : مهملاً لا يؤمر ولا يُنهى ، نثبت أنه خلق الخلق لحكمة ، وأنه خص نوع الإنسان وأهل العقول بالتكليف والأمر والنهي ، وأنه وعدهم على الامتثال بثواب ، وتوعد من عصى منهم بالعقاب ، نثبت هذا كله لربنا وإلهنا ، نثبت أيضًا ما في ذلك من الحِكم في العبادات ، ومن الحكم في المعاملات ، ومن الحكم في القضايا ، ومن الحكم في العقوبات ، وفي الأمراض والعاهات ونحو ذلك ، نقول : إن لله في ذلك حكمة ، وهو الحكيم العليم ، الذي يعلم بالمصالح وإن لم يعلمها العباد ، ولو ظن العباد أن فيها ضرر فالله تعالى ما قدرها إلا لحكمة ، ولمصلحة.

٢٣ وَهَـذَا مَقَـامٌ طَالَمَـا عَجَـزَ الأُلَـى ... نَفَـوْهُ وَكَـرُّوا رَاجِعِـينَ بِحِـيرَةِ

٢٤ وَتَحْقِيـقُ مَـا فِيـهِ بِتَبْيِينِ غَـوْرِهِ ... وَتَحْرِيرِ حَقِّ الْحَقِّ فِي ذِي الْحَقِيقَةِ

٢٥ هُوَ الْمَطْلَبُ الأَقْصَى لِوُرَّادِ بَحْرِهِ ... وَذَا عَسِرٌ فِي نَظْمِ هـذي الْقَصِيدَةِ

٢٦ لِحَاجَتِـهِ إِلَـى بَيَـانٍ مُحَقِّـقٍ ... لأَوْصَافِ مَوْلانَا الإِلَـهِ الْكَرِيمَـةِ

٢٧ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَأَحْكَامِ دِينِهِ ... وَأَفْعَالِهِ فِي كُلِّ هـذي الْخَلِيقَـةِ

٢٨ وَهَـذَا بِحَمْدِ اللَّهِ قَدْ بَانَ ظَاهِرًا ... وَإِلْهَامُـهُ لِلْخَلْـقِ أَفْضَلُ نِعْمَـةِ

الشرح:

قوله:

وَهَـذَا مَقَـامٌ طَالَمَـا عَجَـزَ الأُلَـى ... نَفَـوْهُ وَكَـرُّوا رَاجِعِـينَ بِحِـيرَةِ

أي: عجز الذين نفوه، وكروا راجعين حائرين، يريد بذلك أن هذا المقام الذي هو إثبات قدرة الله على كل شيء، وإثبات تقديره، وأن مع ذلك هذا القدر لا ينافي الشرع، وأن الله سبحانه قدر هذه المقادير: الطاعات والمعاصي، ومع ذلك أعطى الإنسان هذه القوة والقدرة، فهناك الذين نفوا قدرة الله عجزوا وكروا راجعين، وكذلك الذين خاضوا في ذلك بغير تحقيق، وقد تقدم قوله في أول الأبيات:

سَـوَاءٌ نَفَـوْهُ أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا ... بِـهِ اللَّـهَ أَوْ مَـارَوْا بِـهِ لِلشَّرِيعَةِ

أن كل هؤلاء كروا راجعين، أي: رجعوا متحيرين، والواجب التسليم لما ذكره الله تعالى، والتسليم بأن الله قدر هذه المقادير، وأنه جعلها واقعة بقضائه وقدره، وكتابته في الأزل أن هذا شقي وهذا سعيد، وأن هذا يعمل كذا وكذا،

وأن هذا يعمل كذا وكذا، وكذلك التصديق بقدرة الله أنه لو شاء لهدى الناس، وأنه من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهدي الله فلا مضل له، هذا هو الذي سبب عجزهم، وأنهم رجعوا عاجزين ومتحيرين.

ثم قال:

وَتَحْقِيقُ مَا فِيهِ بِتَبْيِينِ غَوْرِهِ وَتَحْرِيرِ حَقِّ الْحَقِّ فِي ذِي الْحَقِيقَةِ

قوله:

(وَتَحْقِيقُ مَا فِيهِ)

أي: ما في هذا القدر.

قوله:

(بِتَبْيِينِ غَوْرِهِ)

يعني: أصله الذي هو مرجعه، غور الشيء يعني: بعده، كغور البئر وغور البحر يعني قاعه، وتحقيق ما في هذا القدر بتبيين بعده، وبتبيين أصوله التي يُرجع إليها.

وقوله:

(وَتَحْرِيرِ حَقِّ الْحَقِّ)

يعني: تحرير الحق الصحيح الذي ليس فيه شبهة.

قوله:

(فِي ذِي الْحَقِيقَةِ)

أي: في هذه الحقيقة التي هي حقيقة الإيمان بقضاء الله تعالى وبقضائه وقدره.

ثم قال:



هُوَ الْمَطْلَبُ الأَقْصَى لِوُرَّادِ بَحْرِهِ وَذَا عَسِرٌ فِي نَظْمِ هذي الْقَصِيدَةِ

هكذا يقول - رحمه الله - أن تحرير حق الحق هو المطلب الأقصى لمن يرد بحره، فشبه عمق هذا الموضوع بالبحر الذي له غور، والذي هو لجي يصعب أن يصل أحد إلى لجته وإلى قعره، ولكن الورّاد يطلبونه ثم يتوقفون فيما لم تصل إليه أفكارهم مع إيمانهم بجميع ما فيه، فيؤمنون بكل ما أخبر الله من أنه قدر المقادير قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، ويؤمنون بأن أول ما خلق القلم، وأنه أمره بأن يكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، كتبه قضاءً وقدرًا جرى به في اللوح المحفوظ.

قوله:

(وَذَا عَسِرٌ فِي نَظْمِ هذي الْقَصِيدَةِ)

يعني: يصعب استقصاء جميع ما يتعلق بهذه المسألة على الناظم، مع أنه قد وضح - رحمه الله - في نظمه الماضي والمستقبل كل ما يكون موضحًا للحق، ولكن لاشك أن الناظم قد يصعب عليه استقصاء تلك الحقائق وتفصيلها وبيانها، وهو - رحمه الله - قد بيّن ذلك في مواضع أخرى، كما بيّنه في كتبه، ففي المجلد الثامن من المجموع رسائل كثيرة تتعلق بالقدر، وتتعلق بمناقشة الطائفتين: طائفة الجبر، وطائفة النفي، فبين ذلك.

ثم يقول - رحمه الله -:

لِحَاجَتِهِ إِلَى بَيَانٍ مُحَقِّقٍ لأَوْصَافِ مَوْلاَنَا الإِلَهِ الْكَرِيمَةِ

قوله:

(لِحَاجَتِهِ إِلَى بَيَانٍ مُحَقِّقٍ)

أي: لحاجة هذا المطلب إلى بيان محقق واضح، يحتاج إلى شرح، ويحتاج إلى تفصيل، ويحتاج إلى أمثلة، وقد أتى في هذه القصيدة بأوائل تلك الأدلة، وذكر

أمثلة كما مضى، وكما يأتي - إن شاء الله تعالى - ولكن قد لا يتسع المقام لبيان ذلك كله، فيُرجع إلى الكتب المنثورة في رسائله التي ذُكرت في هذا المجموع، والتي ذُكرت أيضًا في المجموع القديم الذي جمعه محمد رشاد سالم، ففيه رسالة مهمة تتعلق بالقضاء والقدر، وكذلك أيضًا ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الذي توسع فيه وسماه (شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل).

قوله:

(لأَوْصَــافِ مَوْلانَــا الإِلَــهِ الْكَرِيمَــةِ)

أوصاف الله الكريمة يعني صفة العلم أنه بكل شيء عليم، فيدخل في ذلك علمه بالمستقبل، وهو الذي نفاه غلاة القدرية المتقدمون كغيلان القدري ومعبد الجهني، وهم الذين قال فيهم الشافعي - رحمه الله -: «ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا»، فهذا من أوصاف مولانا نصفه بالعلم.

كذلك من أوصاف مولانا تمام القدرة، أن الله على كل شيء قدير، فيدخل في ذلك قدرته على الهداية أنه يهدي، وقدرته على أفعال العباد، أن العبد لا يقدر أن يفعل شيئًا لم يرده الله، بل أفعاله داخلة تحت مشيئة الله وإرادته القدرية الكونية، فنؤمن بأوصاف مولاه الإله، تلك الأوصاف الكريمة ومن جملتها العلم والقدرة، ومن أسمائه سبحانه العليم القدير، وأسماؤه دالة على صفات تليق به.

ثم يقول:

وَأَسْـمَائِهِ الْحُـسْنَى وَأَحْكَـامِ دِينِـهِ　　وَأَفْعَالِـهِ فِـي كُـلِّ هــذِي الْخَلِيقَــةِ

أي: حاجة أوصافه إلى بيان محقق، وحاجة أسمائه، وحاجة أحكام دينه، وحاجة أفعاله في خلقه، كلها تحتاج إلى بيان محقق، فأسماؤه دالة على صفات، كل اسم له ثلاث دلالات:

[١] دلالة على الذات، دلالة مطابقة.

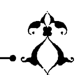
[٢] ودلالة على الصفة التي اشتق منها، دلالة تضمن.

[٣] ودلالة على بقية الصفات، دلالة التزام.

فإذا أثبتنا اسم (القدير)، ثم قلنا: هذا الاسم خاص بالله تعالى، فهو دال على ذات الله، وهو مسمى، فلا ينطبق اسم القدير إلا على الله على الإطلاق، ثم نستنبط منه صفة، ألا وهي القدرة، أنه موصوف بأن له قدرة، فنقول: قدير بقدرة، عليم بعلم، رحيم برحمة، وما أشبه ذلك، وكذلك **(وَأَحْكَامِ دِينِهِ)**، الأحكام: جمع حكم، ويعرفه الأصوليون: بأنه إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، يقولون ـ مثلاً ـ: إثبات العبادات في حق الله تعالى يسمى حكمًا، ونفي النقائص عن الله تعالى يسمى حكمًا، نحكم بإثبات صفات الكمال لله، ونحكم بنفي النقائص كلها عن الله تعالى، ودينه سبحانه فيه أحكام، فيقولون: حكم الصلاة كذا، وحكم الطهارة كذا، وحكم الجماعة، وحكم ما يتعلق بالجنائز، كما يُقال: حكم الربا كذا، وحكم الزنى كذا، يعني إثباتًا ونفيًا.

وكذلك **(وَأَفْعَالِهِ)**، أي: وحكم أفعاله، فأفعاله سبحانه تليق به، ومع ذلك يثبتها أهل السنة إلا أنهم لا يتدخلون في تعليلها، فلا يُقال: لم خلق كذا وكذا؟ لم خلق المعاصي؟ لم خلق إبليس؟ أو لم خلق السباع والحيات؟ لم خلق الخنافس والحشرات؟ لا يجوز مثل هذا، بل نقول: هذه أفعال الله، وهذا خلق الله، جعله عبرة وموعظة وتفصيلاً لكل شيء، فنؤمن بأفعال الله **(فِي كُلِّ هذي الْخَلِيقَةِ)**، أنه يميت ويحيي، ويمنع ويعطي، ويفقر ويغني، ويضحك ويبكي، يفعل ما يشاء لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

ثم يقول – رحمه الله –:



وَهَـذَا بِحَمْـدِ اللَّـهِ قَـدْ بَـانَ ظَـاهِرًا   وَإِلْهَامُـــهُ لِلْخَلْـــقِ أَفْـــضَلُ نِعْمَـــةِ

أي: تبين هذا الحكم، وهو القول في أوصاف الله، والقول في أسمائه وأحكام دينه وأفعاله، وأن من أفعاله كونه قدّر المقادير، قدّر الخير والشر، وأنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد؛ ولهذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧]، فإذا قدّر أن هذا قد هداه الله، وعلم الله أنه يثبت على هذه الهداية، فإنه ليس هناك مَنْ يقدر على إضلاله إلا بمشيئة الله، فإذا قُدر أنه أضل هذا الإنسان، فحكم بضلاله أزلاً وأبدًا، فإنه يبقى ضالاً، ولا يقدر أحد على هدايته إلا بمشيئة الله تعالى، وهذا بين بحمد لله.

قوله:

(وَإِلْهَامُـــهُ لِلْخَلْـــقِ أَفْـــضَلُ نِعْمَـــةِ)

بمعنى أنه سبحانه ألهم العباد، وعلمهم، ووفقهم وأعانهم وسددهم، وهذا نعمة من الله تعالى، فيُقال: إضلاله من أضل عدل منه، وليس للكافر حجة بأن يقول: أضللتني يا رب، بل يقول: هذا حكمي تسلط عليك الأعداء فأطعتهم، وأتتك الحجج والبينات فلم تقبلها، ويقول أيضًا: قد أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولا ينافي ذلك أن الله تعالى حكم بأن هؤلاء إلى الجنة، وهؤلاء إلى النار، فإنه علم من خلقه أن هؤلاء أطهار، فزكاهم وهداهم ووفقهم، وأعطاهم من فضله، حتى اهتدوا واستقاموا، وعلم أن هؤلاء نجس وخبث، وأنهم لا خير فيهم، وأنهم لا يستقيمون، فحكم بضلالهم، وبطردهم عن الهدى، وسلط عليهم الأعداء حتى تحكموا فيهم، فكل ذلك

من عدله، وجاء في حديث: (إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ) بل عدلاً منه وحكمة، (وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ)[1]؛ وذلك لأن أعمالهم ولو كثرت فإنها من الله تعالى؛ لأنه هو الذي أنعم عليهم وهداهم ووفقهم وسددهم حتى صاروا من أهل التقى ومن أهل الإيمان، ومن أهل المعرفة والأعمال الصالحة، فله النعمة عليهم، فلو عاملهم بعدله، لعذبهم ولم يكن ظالمًا لهم، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ولو رحمهم، فإن رحمته خير لهم من أعمالهم، ولو عملوا ما عملوا، فيُقال: هذا - بحمد الله - قد تبين ظاهرًا.

وقوله:

(وَإِلْهَامُهُ لِلْخَلْقِ)

يعني: فضله عليهم أن أنعم هذا بالخير، وأعانه حتى عمل به، فيعتبر أفضل نعمة من الله تعالى على عباده، أنعم على الأنبياء واختصهم بالنبوة، وأنعم على أتباعهم واختصهم بالهداية، وأنعم على جميع المؤمنين وأعانهم على أعمال الإيمان، والأعمال الصالحة الخيرية، فهي أفضل نعمة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وابن حبان (٢/٥٠٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

٢٩ وقد قِيلَ فِي هَذَا وَخُطَّ كِتَابُه بَيَانُ شِفَاءٍ لِلنُّفُوسِ السَّقِيمَةِ

٣٠ فَقَوْلُكَ لِمَ قَدْ شَاءَ مِثْلُ سُؤَالِ مَنْ يَقُولُ فَلِمَ قَدْ كَانَ فِي الأَزَلِيَّةِ

٣١ وَذَاكَ سُؤَالٌ يُبْطِلُ الْعَقْلُ وَجْهَهُ وَتَحْرِيمُهُ قَدْ جَاءَ فِي كُلِّ شِرْعَةِ

٣٢ وَفِي الْكَوْنِ تَخْصِيصٌ كَثِيرٌ يَدُلُّ مَنْ لَهُ نَوْعُ عَقْلٍ أَنَّهُ بِإِرَادَةِ

الشرح:

قوله:

(وقد قِيلَ فِي هَذَا)

أي: قيل في هذا وتُكلم فيه، وعُرف بأنه مكتوب، وأن الله تعالى خطه وكتبه، كما في حديث عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: **(كان الله ولم يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وكان عَرْشُهُ على الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوات وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ)**[1]، فدل على أنه لم يُسبق بعدم، ولم يكن شيءٌ قبله، كما قال ذلك النبي ﷺ في قوله في بعض الأدعية: **(أنت الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)**[2]، وهذا تفسير للآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فالله سبحانه وتعالى هو الأول وليس قبله شيء.

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله:

(وَخُـــــــطَّ كِتَابُــــــــه)

يعني: كتب في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن، أي: كل ما يحصل في الدنيا منذ أن خُلقت الدنيا إلى أن تقوم الساعة، كتب ذلك كله قبل أن يخلق السَّمَٰوات والأرض، خُط ذلك الكتاب، فلا يكون شيء في الوجود إلا وهو موجود في اللوح المحفظ، وقد ذكر العلماء - كشيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية[1]- أن القدر أربع مراتب:

المرتبة الأولى: العلم:

أي: أن علم الله سابق لكل المعلومات، عَلم الخلق، وعلم عددهم، وعلم أعمالهم.

المرتبة الثانية: الكتابة:

أي: أمر بكتابته في اللوح المحفوظ، أي: كتابة هذه المخلوقات كلها: كلمات الخلق، وأفعالهم، وعددهم مهما كثر تناسلهم وأعدادهم.

المرتبة الثالثة: الخلق:

أي: أن تؤمن بأنّ كُلَّ شيءٍ مخلوق، فالله تعالى خالقه، مثل: أعمال العباد وأحوالهم، والسَّمَٰوات والأرض ومن فيهن.

المرتبة الرابعة: الإرادة:

أي: أن الله تعالى لا يكون في الوجود إلا ما يريد، وأنه أراد ما الخلق عاملون إرادة كونية قدرية، أي: أنه أراد جميع ما يحصل، وما لم يشأ لم يحصل؛ ولذلك في الحديث: **(مَا شَاءَ الله كَان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ)**[2]،

---

(١) (ص٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

فالإرادة يدخل فيها كل الموجودات، والمراد بها الإرادة القدرية الكونية العلمية، وأما الإرادة الشرعية فإنها لا تتعلق إلا بالعبادات، فإيمان المؤمنين قد أراده الله كونًا وقدرًا فحصل، وأراده دينًا وشرعًا فيثيب عليه، وإيمان الكفار أراده الله دينًا وشرعًا، ولم يرده كونًا وقدرًا؛ فلذلك لم يحصل، وكفر الكافرين ما أراده الله دينًا وشرعًا، ولكن أراده كونًا وقدرًا، فوقع، فكل ما أراده كونًا وقدرًا لابد أن يقع من طاعات ومعاص، وكذلك كل ما أراده دينًا وشرعًا فإنه يحبه، ولكن لا يلزم من محبته أنه محبوب وأنه يحصل.

وقد جاءت هذه المراتب في قول الناظم:

عِلْمُ كِتَابَةِ مَوْلانَا مَشِيْئَتُهُ ... وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِيْجَادٌ وَتَكْوِيْنُ

وقوله:

(بَيَانُ شِفَاءٍ لِلنُّفُوسِ السَّقِيمَةِ)

أي: أن هذا بيان وإيضاح وشفاء للنفوس.

ثم يقول - رحمه الله -:

فَقَوْلُكَ لِم قَدْ شَاءَ مِثْلُ سُؤَالِ مَنْ ... يَقُولُ فَلِمَ قَدْ كَانَ فِي الأَزَلِيَّةِ

أي: إذا قال المتعنت: لم شاء الكفر؟ ولم أراده؟ وكيف أراده؟ وكيف قدّره؟ يقول الشيخ: هذا السؤال شبيه بقول من يقول: لم كتبه في الأزل؟ لم قدّره في الأول؟ لم قدّر أهل النار؟ ولم قدّر عليهم الكفر والمعاصي والبدع والمحدثات؟ أو لم خلقهم وقد علم أنهم يعصونه، أو لم خلق الشياطين وقد علم أنها تضل خلقه؟ كل هذا تعنت، وتكلف لا يجوز التمادي فيه، ولذلك يقول:

وَذَاكَ سُـؤَالٌ يُبْطِـلُ الْعَقْـلُ وَجْهَـهُ وَتَحْرِيمُـهُ قَـدْ جَـاءَ فِـي كُـلِّ شِـرْعَةِ

أي: قولك: لم شاء الكفر؟ سؤال يبطل العقل وجهه، كقولك: لم كان في الأول؟ لم خلق أزلاً - يعني قديمًا - هذه المعاصي وقدرها، وخلق هؤلاء العصاة وجعلهم دعاة إلى المعاصي وما أشبهها؟ فهذا سؤال يبطل العقل وجهه، نحن نعرف أن: **(مَاَ شَاءَ الله كَان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ)**، ونعلم قول الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، هذا السؤال في قوله: لم شاء؟ أو لم قدر ذلك في الأزل؟ يبطل العقل وجهه.

ثم قال:

(وَتَحْرِيمُـهُ قَـدْ جَـاءَ فِـي كُـلِّ شِـرْعَةِ)

أي: جاء في كل الشرائع تحريم هذا السؤال، كما تقدم أنه لا يجوز أن يُقال: (كيف؟) في صفات الله تعالى، ولا يُقال: (لِمَ) في أفعال الله تعالى، فإنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم يقول – رحمه الله–:

وَفِي الْكَوْنِ تَخْصِيصٌ كَثِيرٌ يَدُلُّ مَنْ لَـهُ نَـوْعُ عَقْـلٍ أَنَّـهُ بِـإِرَادَةِ

أي: هذا الكون وهذا الوجود على وجه الأرض فيه تخصيص كثير، أن الله خص هذا بالغنى، وخص هذا بالإيمان، وخص هذا بالهداية، وخص هذا بالعلم، وخص هذا بالعبادة، وخص هذا بالتوبة، وكذلك ضد ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣- ٤٤]، فكل هذا بإرادته وبعلمه، فتخصيص كثير من الخلق بما خصصهم به دليل على أن الله أراد ذلك، ولكن إنما يعتبر بذلك أهل العقول، أي: من له عقل، ومن له معرفة، بخلاف من سُلبوا التأمل والتفكر في آيات

الله، كهذا المعترض - أي: هذا الناظم - الذمي الذي قدَّم هذا الاعتراض، فإنه يدل على نقص عقله، أما الذي له عقل كامل فإنه يعتبر ويعرف أن الله حكيم، حيث خص هؤلاء وحرم هؤلاء، وأن ذلك بإرادة، وهذه الإرادة في حق المؤمنين إرادة كونية وإرادة شرعية، وفي حق غيرهم إرادة كونية، فيؤمن أهل السنة بذلك كله، ويعلمون أن الله تعالى حكيم في أمره ونهيه يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.

٣٣	وَإِصْـدَارُهُ عَـنْ وَاحِـدٍ بَعْـدَ وَاحِـدٍ	أَوْ الْقَـوْلُ بِـالتَّجْوِيزِ رَمْيَـةُ حِـيرَةِ
٣٤	وَلا رَيْـبَ فِـي تَعْلِيـقِ كُـلِّ مُـسَبَّبٍ	بِمَـا قَبْلَـهُ مِـنْ عِلَّـةٍ موجبيـة
٣٥	بَلِ الشَّأْنُ فِي الأَسْبَابِ أَسْبَابُ مَا تَرَى	وَإِصْدَارُهَا عَنْ الْحُكْمِ مَحْضُ الْمَشِيئَةِ
٣٦	وَقَوْلُـكَ لِـمَ شَـاءَ الإِلَـهُ هُـوَ الَّـذِي	أَزَلَّ عُقُـولَ الْخَلْـقِ فِـي قَعْـرِ حُفْـرَةِ
٣٧	فَـإِنَّ الْمَجُـوسَ الْقَـائِلِينَ بِخَـالِقٍ	لِنَفْـعٍ وَرَبٌّ مُبْـدِعٍ لِلْمَـضَرَّةِ
٣٨	سُـؤَالُهُمْ عَـنْ عِلَّـةِ الـسِّرِّ أَوْقَعَـتْ	أَوَائِلَهُـمْ فِـي شُـبْهَةِ الثَّنَوِيَّـةِ
٣٩	وَإِنَّ ملاحيـد الْفَلاسِـفَةِ الأُلَـى	يَقُولُـونَ بِالْفِعْـلِ الْقَـدِيمِ لِعِلَّـةِ
٤٠	بَغَـوْا عِلَّـةً لِلْكَـوْنِ بَعْـدَ انْعِدَامِـهِ	فَلَـمْ يَجِـدُوا ذَاكُـمْ فَـضَلُّوا بِـضَلَّةِ

الشرح:

قولـه: وَإِصْـدَارُهُ عَـنْ وَاحِـدٍ بَعْـدَ   أَوْ الْقَـوْلُ بِـالتَّجْوِيزِ رَمْيَـةُ حِـيرَةِ

يشير إلى الذين يقولون: إنه إذا صدر عن واحد لزم أن يكون ذلك الواحد صادرًا عن واحد، أو يقولون بجواز ذلك، فيخبر أن ذلك يؤدي إلى الحيرة، وقد تكلم أيضًا في كثير من كتبه عن قولهم: «إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد»، وبيَّن أنه ليس هناك شيء صدر عنه واحد ولا اثنان، بل كل المخلوقات صادرة عن الرب سبحانه وتعالى، ومثّل بأنه قد يصدر من الواحد عدد، فمثلاً: النار يصدر منها الرماد، ويصدر منها الدخان، ويصدر منها الفحم أو الجمر، وكذلك الإنسان يصدر منه الخير والشر، والصالح والفاسد، فقولهم: إنه لابد أن يكون واحدًا، وذلك الواحد عن واحد، أو أن ذلك جائز، كل هذا (رَمْيَةُ حِيرَةِ)، أي: تخرص يؤدي إلى الحيرة، كما هي الطريقة

التي يذكرها شيخ الإسلام عن كثير من علماء الأشاعرة، وعلماء المتكلمين أن نهايتهم إلى الحيرة.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَلا رَيْبَ فِي تَعْلِيقِ كُلِّ مُسَبَّبٍ ... بِمَا قَبْلَهُ مِنْ عِلَّةٍ موجبية

صحيحٌ أن كل مسبب لابد أن يكون له سبب في الأمور كلها، ولابد أن يكون له علة موجبة لحدوثه، كل مسبب وكل حادث لابد أن يكون له سبب، هكذا أجرى الله تعالى من حكمته أن جعل لها أسبابًا، فالأكل سبب الشبع، والشرب سبب للري، والجماع سبب للولد، وكذلك الأسباب الحسية حرث الأرض وبذرها وسقيها سبب لإنباتها، جعل الله ـ مثلاً ـ الرياح سببًا لإنشاء السحب في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ [الأعراف: ٥٧]، وجعل نزول المطر على الأرض سببًا لهذا النبات، فقبل نزوله لا يوجد هذا النبات إلا أن يشاء الله، فكل مسبب له سبب، فكذلك الأعمال الصالحة سبب للسعادة ولدخول الجنة، والكفر والسيئات والبدع والمحرمات سبب للشقاوة ولحرمان الإنسان عند الله تعالى الثواب الجزيل، واشتهر عند العامة يقولون: وجعلنا لكل شيء سببًا، ولكن ليس هذا بقرآن، وإنما فيه قول الله تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، يعني: أعطيناه وسائل وأسبابًا تقويه إلى أن طاف مشارق الأرض ومغاربها، فهذا السبب يسمى العلة في الوجود، يُقال مثلاً: علة الموت المرض، وعلة الشفاء من المرض العلاج والدواء، وما أشبه ذلك، أي أنه سبب، وقالوا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، إن (اللام) للتعليل وللسببية، أي: أن العلة في إيجادهم أن يؤمروا بالعبادة.

ثم يقول الشيخ - رحمه الله -:

بَلِ الشَّأْنُ فِي الأَسْبَابِ أَسْبَابُ مَا تَرَى
وَإِصْدَارُهَا عَنْ الْحُكْمِ مَحْضُ الْمَشِيئَةِ

قوله:

(الشَّأْنُ فِي الأَسْبَابِ)

أنها تكون أسبابًا لكل ما ترى.

قوله:

(وَإِصْدَارُهَا عَنْ الْحُكْمِ مَحْضُ الْمَشِيئَةِ)

أي: أن كلها صادرة عن حكمة، وصادرة أيضًا بمشية الله، ولو شاء الله لم تكن، فالأصل أن الله هو الذي جعلها أسبابًا، ولكن قد يتخلف المسبب مع وجود السبب؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥]، يعني: يمد سببًا إلى السقف أي: حبلاً، وتسمى الحبال أسبابًا، وكذلك الوسائل التي يُصعد إليها إذا كان المكان مرتفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ١٠]، أي: في الوسائل التي توصلهم إلى السماء، وكذلك قول فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر: ٣٦]، يعني: الوسائل التي أصعد بها إلى السماء، فالله تعالى جعل أسبابًا لكل ما في الوجود، وهذه الأسباب لاشك أنها صادرة عن مشيئة الله تعالى، ولو شاء لتعطلت تلك الأسباب، لو شاء ما أثرت، فقد يكون هناك سبب ولا يحصل أثره، قد يزرع الزارع ولا يحصل نبات، أي: يمنع الله التأثير، وقد يتزوج الشخص ويجامع ولا يحصل أولاد، وقد يعالج بعلاجات ولا يحصل الشفاء، فالأسباب لا تكون مفيدة إلا بعد مشيئة الله تعالى، فإن الله تعالى هو الذي خلق الأسباب ومسبباتها، وجعل في الأسباب تأثيرًا في

المسبب، جعل - مثلاً - السقي سببًا للثمرة وللنبات وما أشبهه، وكذلك جعل التعلم سببًا للعلم، وجعل النكاح سببًا لوجود الأولاد، الذين قدر الله وجودهم، وغير ذلك من الأسباب، فكلها صادرة عن مشيئة الله تعالى؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، بعد قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فأثبت أن للعبد مشيئة، ثم ذكر أن مشيئته مرتبطة بمشيئة الله، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]، بيَّن أن له مشيئة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ثم قال - رحمه الله -:

وَقَوْلُكَ لِمَ شَاءَ الإِلَهُ هُوَ الَّذِي ... أَزَلَّ عُقُولَ الْخَلْقِ فِي قَعْرِ حُفْرَةِ

يقول العلماء: لا يُسأل الله تعالى عما يفعل، فلا يُسأل (بكيف) عن الصفات، ولا يُسأل (بلِمَ) عن الأفعال، فلا يُقال: لماذا خلق الله إبليس؟ الله تعالى حكيم، أو لماذا خلق الله الحيات والعقارب أو ذوات السموم، أو لماذا خلق الله السباع والذئاب والأسود وما أشبهها؟ الله خالق كل شيء، فالسؤال: لم كان كذا؟

قال:

وَقَوْلُكَ لِمَ شَاءَ الإِلَهُ هُوَ الَّذِي ... أَزَلَّ عُقُولَ الْخَلْقِ فِي قَعْرِ حُفْرَةِ

الخلق الكثير الذين يتقعرون، ويسألون عن مثل هذه الأشياء، زلت بذلك عقولهم، والأولى أن يقولوا: ما شاء الله كان وإن لم نشأ، وما لم يشأ لم يكن وإن شئنا، لقوله ﷺ: **(وَاعْلَمْ أن الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا على أن يَنْفَعُوكَ لم يَنْفَعُوكَ**

إلا بشيء قد كَتَبَهُ الله لك، وَلَوِ اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ لم يَضُرُّوكَ إلا بشيء قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ)[١].

فالواجب التسليم لأمور الله، ولا ينافي ذلك فعل الأسباب، فإن الإنسان يفعل الأسباب ويقول: هذا سبب أمرنا الله به، والله مسبب الأسباب، فلا يجوز للإنسان ترك الأسباب تركًا كليًا، بل يفعل ما يقدر عليه مما له قدرة عليه أعطاه الله إياها، ومن ذلك طلب الرزق، أن يتسبب الإنسان ويلتمس الرزق، ويكون التماسه سببًا قدّره الله بأنه يحصل له الذي يريده ويطلبه، فيقول: أنا أبذر والله هو الذي يسبب الثمار، وأنا أتاجر والله هو الذي يقدر ربحًا، وأن أحترف بهذه الحرفة والله الذي يقدر هذه الأرباح أو هذه الفوائد، كذلك يقول: أنا أعمل الحسنات والله هو الذي أقدرني، وهو الذي قواني وأعطاني، وأترك السيئات، وأعلم أن فعل السيئات ذنب من الذنوب قد يكون سببًا في العقوبة، وأن فعل الحسنات عمل بر صالح جعله الله سببًا في الأعمال الصالحة وفي الثواب، فلا يقول الإنسان: لماذا خلق الله كذا، لماذا خلق الله المعاصي ويعاقب عليها؟ ولماذا أقدر العباد على السيئات، ولماذا مكن الكفار من الكفر، ومكن المبتدعة من البدع، هذا الفهم هو الذي أذل عقول خلق كثير، وأوقعهم في حفرة يعني مهلكة ومذلة.

ثم يقول - رحمه الله -:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/٣٠٧)، وأبو يعلى (٤/٤٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فَإِنَّ الْمَجُوسَ الْقَائِلِينَ بِخَالِقٍ لِنَفْعٍ وَرَبٌّ مُبْدِعٍ لِلْمَضَرَّةِ

المجوس يقولون: إن للوجود خالقان: خالق للخير وهو النور، وخالق للشر وهو الظلمة، فيدعون أن هذا الوجود صادر عن اثنين، فهؤلاء لهم ديانة وهم مع ذلك ليسوا أهل كتاب، ولكن هكذا ابتدعوا فقالوا: إن الوجود صادر عن اثنين: النور والظلمة، خالق للنفع وهو النور، ورب مبدع للمضرة وهو الظلمة، ويقولون مع ذلك: إن النور كله خير ولا يأت إلا بخير، وإن الظلمة شريرة وأنها مصدر الشرور.

فيقول الشيخ - رحمه الله -:

سُؤَالُهُمْ عَنْ عِلَّةِ السِّرِّ أَوْقَعَتْ أَوَائِلَهُمْ فِي شُبْهَةِ الثَّنَوِيَّةِ

يعني: أنهم يسألون عن العلة والسر في وجود الخير والشر، أخذوا يسألون (**عَنْ عِلَّةِ السِّرِّ**)، أي: عن السبب، أو الحكمة التي لأجلها حصل هذا الشر، وحصل الخلق، ووجد هؤلاء الخلق، (**أَوْقَعَتْ أَوَائِلَهُمْ**)، وأكابرهم الذين ابتدعوا هذه البدعة أوقعتهم (**فِي شُبْهَةِ الثَّنَوِيَّةِ**)، أي: أن كانوا يقولون: إن العالم صادر عن اثنين، ويسمون الثانوية، حيث يدعون أن للعالم خالقان موجودان، فكانوا بذلك أشر الخلق، حيث لم يعترفوا بالخالق الواحد الذي هو الرب سبحانه وهو خالق كل شيء، فأوقعتهم في هذه الشبهة التي هي كونهم يسمونه (ثانوية)، يعني: أنهم يجعلون الخلق صادرًا عن خالقين اثنين، فهذا هو السبب، لما ادعوا أن خالق الخير واحد، وخالق الشر واحد، عند ذلك صاروا على هذه الصفة يدعون إلى الشر، فهذا مما عللوا به أنهم يدّعون أنهم على صواب حيث قالوا: إن للخلق ربان، تعالى الله عن ذلك، الله تعالى هو رب

العالمين، رب الخلق أجمعين، هو الذي خلق الخلق، وقدّر أرزاقهم وقدر أعمالهم فهو الواحد القهار كما أخبر عن نفسه، فهذه عقيدة المجوس.

ثم قال - رحمه الله -:

وَإِنَّ ملاحيد الْفَلاسِفَةِ الأُلَى يَقُولُونَ بِالْفِعْلِ الْقَدِيمِ لِعِلَّةِ

المراد الفلاسفة الأُلى؛ لأن الفلاسفة ينقسمون إلى:

[١] فلاسفة طبيعيين.

[٢] وفلاسفة إلهيين.

[١] الفلاسفة الطبيعيون:

وهم الذين يقولون: إن هذا الوجود وجد بالطبيعة، ولا يثبتون خالقًا، ويقولون: إن الأشياء إنما توجد بطبعها، وفيهم يقول الحافظ الحكمي في داليته:

يرى الطبيعة في الأشياء مؤثرة أين الطبيعة يا مخذول إذ وجدوا[١]

فهؤلاء الملاحدة الذين كثروا في الزمان القديم، ووجدوا أيضًا في المتأخرين، يقولون بالفعل القديم لعلة، فيقولون: إن هذا الخلق لم يكن له مبدأ، بل لم يكن هناك مبدأ لنوع الإنسان، بل إنه قديم، وكذلك ينكرون أن تكون السَّمَٰوات معدومة ثم خُلقت، وكذا الأرض، وكذا الأفلاك، وكذا النجوم، وكذا الحيوانات، وكذا نوع الإنسان عندهم أنه ليس لهذه مبدأ، بل إنها قديمة، هذا قولهم في الأزل، وهو أن وجوده بالطبيعية.

ثم يقولون كذلك أيضًا في الأبد فينكرون نهاية هذه الدنيا، ويقولون: لا يزال الناس على هذه الدنيا، ولا تزال هذه المخلوقات ثوابت على ما هي عليه،

---

(١) انظر: مقدمة الجوهرة النريدة في تحقيق العقيدة.

ويقولون: ليس لهذا الخلق نهاية، وذكر ابن كثير أنهم يقولون: إن هذا الخلق لازم باق، أرحام تدفع وأرض تبلع، هذه هي عباراتهم.

قوله:

(يَقُولُـــونَ بِالْفِعْـــلِ الْقَـــدِيمِ لِعِلَّـــةٍ)

أي: أن كل شيء قديم وليس له مبدأ، فيُقال لهم: إن هذه المخلوقات تُشاهد أنها معدومة ثم توجد، ولابد للموجود من موجد، وإذا خيف من التسلسل، انتهت إلى القول بقدم الرب سبحانه وتعالى، وأنه هو القديم، وأن ما سواه فإنه حادث.

[٢] الفلاسفة الإلهيون:

فإنهم يقرون بوجود الخالق، ولكنهم يشابهون المجوس الطبيعيين، فيقولون: ليس للخلق مبدأ وليس له نهاية، وينكرون البعث بعد الموت، فيقولون: إن من مات لا يُعاد، وينكرون أن يكون هناك جنة ونار في الآخرة، بل ينكرون الآخرة، أولهم يسمونه المعلم الأول وهو (أرسطو)، كان إلهيًا ولكنه على هذه العقيدة، عقيدة الفلاسفة، ثم جاء بعده في هذه الأمة أيضًا من هم على شاكلته وعقيدته وأشهرهم (الفارابي)، ويسمونه المعلم الثاني؛ ولهذا يقول الحافظ الحكمي - رحمه الله -:

ومـا أرسـطو ولا الطُّوسـي أئمتنـا ... ولا ابـن سـبعين ذاك الكـاذب الفنـدُ[١]

فتبرأ من طريقتهم، فهذا قولهم في الفعل القديم: أن كل شيء لم يكن له بداية.

---

(١) (الفندُ) أي: الخَرِف.

فيقول الناظم - رحمه الله -:

بَغَوْا عِلَّةً لِلْكَوْنِ بَعْدَ انْعِدَامِهِ فَلَمْ يَجِدُوا ذَاكُمْ فَضَلُّوا بِضَلَّةِ

قوله:

(بَغَوْا عِلَّةً لِلْكَوْنِ بَعْدَ انْعِدَامِهِ)

أي: حاولوا أن يجدوا علة لهذا الكون، يعني أن يجدوا له مبدأ، وأن يجدوا له علة سببت وجوده.

قوله:

(فَلَمْ يَجِدُوا ذَاكُمْ)

يعني: لم يستطيعوا أن يجدوا علة، فقالوا: إنه بالطبيعة، أن الأصل إنه وجد بالطبيعة.

قوله:

(فَضَلُّوا بِضَلَّةِ)

أي: فصار ذلك القول ضلالاً كبيرًا.

٤١ وَإِنَّ مبادي الشَّرِّ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ذَوِي مِلَّةٍ مَيْمُونَةٍ نَبَوِيَّةِ

٤٢ بخوضهمو فِي ذَاكُم صَارَ شِرْكُهُمْ وَجَاءَ دُرُوسُ الْبَيِّنَاتِ بِفَتْرَةِ

٤٣ وَيَكْفِيكَ نَقْضًا أَنَّ مَا قَدْ سَأَلْتَهُ مِنَ الْعُذْرِ مَرْدُودٌ لَدَى كُلِّ فِطْرَةِ

٤٤ فَأَنْتَ تَعِيبُ الطَّاعِنِينَ جَمِيعَهُمْ عَلَيْكَ وَتَرْمِيهِمْ بِكُلِّ مَذَمَّةِ

٤٥ وَتَنْحَلُ مَنْ وَالاكَ صَفْوَ مَوَدَّةٍ وَتُبْغِضُ مَنْ ناواك مِنْ كُلِّ فِرْقَةِ

٤٦ وَحَالُهُمْ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلَةٍ كَحَالِكَ يَا هَذَا بِأَرْجَحِ حُجَّةِ

٤٧ وَهَبْكَ كَفَفْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ كَافِرٍ وَكُلِّ غَوِيٍّ خَارِجٍ عَنْ مَحَجَّةِ

٤٨ فَيَلْزَمُكَ الإِعْرَاضُ عَنْ كُلِّ ظَالِمٍ عَلَى النَّاسِ فِي نَفْسٍ وَمَالٍ وَحُرْمَةِ

الشرح:

قال - رحمه الله -:

وَإِنَّ مبادي الشَّرِّ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ذَوِي مِلَّةٍ مَيْمُونَةٍ نَبَوِيَّةِ

بخوضهمو فِي ذَاكُم صَارَ شِرْكُهُمْ وَجَاءَ دُرُوسُ الْبَيِّنَاتِ بِفَتْرَةِ

قوله:

(وَإِنَّ مبادي الشَّرِّ)

أي: كونهم خاضوا في تلك الأمور.

قوله:

(فِي كُلِّ أُمَّةٍ ذَوِي مِلَّةٍ مَيْمُونَةٍ نَبَوِيَّةِ)

أي: كل أمة لها ملة ولها شريعة نبوية، متى حدث الشر فيهم؟ قال:

(بخوضهمو فِي ذَاكُم)

أي: لما خاضوا في هذه الأمور الغيبية، في العلة والمعلول، والقدم والحدوث، والانعدام وعدمه، هذه مبادئ الشر، أي: كونهم خاضوا.

فقوله:

(بخوضهمو فِي ذَاكُم صَارَ شِرْكُهُمْ)

يعني: أنه حدث شركهم بسبب الخوض الذي نهى الله عنه وعذب أهله، الذين يقولون: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، أي: نبحث معهم ونتكلم فيما يخوضون فيه، وقد نهى الله تعالى نبيه وأمة نبيه عن مثل ذلك، بل قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، أي: إذا رأيتم يخوضون في هذه الأمور فابتعد عنهم، فصار شركهم بهذا الخوض.

قوله:

(وَجَاءَ دُرُوسُ الْبَيِّنَاتِ بِفَتْرَةٍ)

(دُرُوسُ) أي: اندرسها، (الْبَيِّنَاتِ) يعني: الحجج والعلامات والبينات التي جعلها الله تعالى علامات لمن يعتبرها، اندرست بسبب خوضهم وشركهم، (بِفَتْرَةٍ)، الفترة: التي هي انقطاع الرسل، كما في قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩].

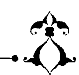
ثم يقول - رحمه الله -:

وَيَكْفِيكَ نَقْضًا أَنَّ مَا قَدْ سَأَلْتَهُ ... مِنَ الْعُذْرِ مَرْدُودٌ لَدَى كُلِّ فِطْرَةِ

يرد بذلك على هذا الذمي الذي يطعن في الشرع، ويحتج بالقدر، ويقول:

دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى ... دُخُولِي سَبِيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتِي

يكفيك أيها السائل نقضًا لسؤالك، وإبطالاً لما تقوله، أن الذي قد سألته من العذر مردود، ليس لك عذر عند كل ذي فطرة، أي: عند كل من له فطرة وفطنة وعقل أيًا كان، أن هذا القول مردود عليه، كلٌ يرده.



ثم أخذ يذكر أمثالاً، يقول - رحمه الله -:

فَأَنْتَ تَعِيبُ الطَّاعِنِينَ جَمِيعَهُمْ عَلَيْكَ وَتَرْمِيهِمْ بِكُلِّ مَذَمَّةِ

فالطاعنون عليك تذمهم، إذا صار يتكلمون فيك ويسبونك ويقدحون فيك، ويعيبونك فإنك تكرههم وتعيبهم، وترميهم بالمذمات، وتقول: هؤلاء تعدوا عليَّ، وهؤلاء كذبوا عليَّ وظلموني، واتهموني بكذا وكذا، فلماذا لا تحتج بالقدر؟ ولماذا لا تقول: هذا شيء مكتوب عليَّ، أنهم يذمونني، وأنهم يطعنون في ويعيبونني؟ فلاشك أن هذا دليل على أن كل عاقل ينكر ما سألت عنه، إذا كان هذا كله عن قدر فلا تعب أحدًا طعن عليك، ولا ترمهم بكل ذمة، ولا تقل: إنهم كذبوا علي، وإنهم ظلموني ونحو ذلك.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَتَنْحَلُ مَنْ وَالاكَ صَفْوَ مَوَدَّةٍ وَتُبْغِضُ مَنْ نَاواك مِنْ كُلِّ فِرْقَةِ

أي: الذي يواليك تنحله صفو المودة، إذا كان فلان وفلان وفلان أصدقاء لك يوالونك وينصحونك ويهبونك ويخدمونك وينفعونك، فهل تجعلهم كالذين يذمونك ويسبونك؟ لاشك أن الذين يسبونك ترميهم بكل مذمة، وأن الذي يوالونك وينصحونك ويعطونك وينفعونك تؤثرهم بصفو مودة.

قوله:

(وَتُبْغِضُ مَنْ نَاواك مِنْ كُلِّ فِرْقَةِ)

أي: كل من ناوأك وعاداك من أية فرقة فإنك تبغضه، فلماذا لا تسوي بينهم؟ إذا كان هذا كله بقدر فسوٍّ بين الذين يوالونك والذين يبغضونك، واجعلهم على حدٍ سواء، هذا بقدر أحبك ونصحك ونفعك، وهذا بقدر أبغضك وأذلك وأهانك وتنقصك، فهل كل عاقل يسوي بين الذي يبغضه وبين الذي يحبه ويقول: إنهم ليس لهم اختيار بل إنه قدر؟.

ثم يقول الشيخ:

وَحَالُهُمْ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلَةٍ كَحَالِكَ يَا هَذَا بِأَرْجَحِ حُجَّةِ

أي: حال الذين يوالونك والذين يناوئونك حالهم في كل قول وفعل، مثل حالك يا هذا، (**بِأَرْجَحِ حُجَّةِ**)، فإذا كنت تحتج بالقدر، وتدّعي أن الله تعالى هو الذي أوقعك في ذلك، فلماذا لا تسوي بين الذين يوالونك والذين يناوئونك؟ فحالهم كحالك يا هذا بأرجح حجة، ولكن العادة أنه لا يلوم ولا يحتج بالقدر إلا عند الأضرار ونحوها، كما ذكر ابن القيم في ميميته، يقول -رحمه الله-:

وعند مراد الله تفنى كميت وعند مراد النفس تسدي وتلحم

ثم يقول الشيخ - رحمه الله -:

وَهَبْكَ كَفَفْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ كَافِرٍ وَكُلِّ غَوِيٍّ خَارِجٍ عَنْ مَحَجَّةِ

أي: إذا قدرنا - مثلاً - أنك لا تلوم الكفار، وتقول: إنهم معذورون، وأن الله هو الذي قدَّر عليهم، وأن الله هو الذي أوقعهم في هذا الكفر، وأن الله هو الذي حرك أعمالهم، وحرك أفعالهم، وحرك ألسنتهم وأيديهم، حتى كفروا، فلا نلومهم، أن تكف اللوم عن الكفار وكذلك أن تكف اللوم عن الغواة الخارجين عن المحجة، أي: عن محجة الله تعالى، وأن تكف اللوم عن هؤلاء، وتقول: إنهم ليسوا لهم اختيار، بل إنهم ليسوا مختارين لشيء فالأصل أنهم معذورون؛ لأنهم مجبورون على ذلك.

ثم قال:

فَيَلْزَمُكَ الإِعْرَاضُ عَنْ كُلِّ ظَالِمٍ عَلَى النَّاسِ فِي نَفْسٍ وَمَالٍ وَحُرْمَةِ

وهذا لازم لكل من يحتج بالقدر، لازم لهم، فيقول: يلزمك أن تعرض عن كل ظالم، وأن تصوب ظلمه سواء عليك أو على غيره، ولا تقل: هذا ظالم،

بل تقول: إن هذا معذور، وأنه ليس له فعل، وليس له اختيار، وليس له قدرة، بل هو مجبور، سواءً كان ظلمه عليك أو على غيرك في نفس، أو مال، أو حرمة، وإذا اعتدى عليك فضربك، فلا تقل: هذا ظلمني، وكذلك لو جرحك أو طعنك، أو شجك، أو قطع منك عضوًا أو من غيرك، فلا تعترض عليه، ولا تقل، هذا ظالم، وهذا متعدٍ، بل اعذره، وكل من تعدى عليك فإنك تعذره، وهكذا أيضًا من تعدى على مالك، أو مال غيرك من المسلمين، لا تقل: هذا سرق، وهذا نهب، وهذا اختلس، وهذا غصب، وهذا تعدى على مال فلان وظلمه، وأخذ ما ليس حقًا له، ولا تقل: أطلب الانتقام ممن ظلمني، أو لفلان حق على من ظلمه، وكذلك أيضًا إذا تعدى على امرأتك أو على بنتك أو نحو ذلك وفعل بها فاحشة، فلا تلمه، ولا تقل: هذا ظالم، هذا زانٍ، هذا متعدٍ، بل عليك أن تعذره، وهل هذا صحيح أنك تعذر مثل هؤلاء؟ فكل عاقل إذا اعتدى أحد عليه فإنه لابد أن يطلب الانتقام، ويقول: أريد أخذًا بحقي، وقد يحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، فيقول: هذا تعدى على نفسي أو على ولدي؛ لأجل أن ينتقم ممن تعدى عليه، وكذلك لا يعذرون من أخذ مالاً بغير حق، أو فجر بامرأة محرمة عليه، لا يعذرونه، ولأجل ذلك رتب الله العقوبات على هذا؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، أي: أن من قتل فإنه يُقتل، وكذلك قال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، أي: من جرح فإن للمجروح حق أن يطلب حقه، وأن يطلب مثل جرحه أو قطع عضوه أو نحو ذلك، وكذلك المال، فالذي يعتدي على الأموال يعتبر ظالمًا، وقد جعل الله حد السرقة قطع اليمين، أي: أنه تُقطع يده جزاء على اعتدائه، وجزاء على

ظلمه، وكذلك رتب الله الحد على من زنى أنه يُرجم، أو يُجلد ويُغرب، ولا يقول عاقل: إن هذا مكتوب عليه، وأنه معذور فلا نعترض عليه، ولا نسيء به الظن، بل نقول: إنه معذور بهذا الفعل، لا يقول ذلك أي عاقل، ولو قال ذلك لتسلط الأشرار على الأخيار، وقتلوهم، وسفكوا الدماء ومثلوا بهم وانتهبوا الأموال، وانتهكوا الحرمات ، فيحصل بذلك فساد كبير، فالله تعالى ما عذرهم، ولو كان ذلك بقضائه وقدره، كل شيء بقضاء وقدر، ولكن لابد أن الذين يتعدون بأفعال تنسب إليهم يكونون ملومين، ويستحقون العقوبة على أفعالهم، فيقول: يلزمك الإعراض عن كل ظالم، والكف عن كل كافر، وعن كل غوي، فمن ظلم الناس في أنفسهم أو في أموالهم أو في حرماتهم أو أعراضهم، فهل يليق أن يسكت المظلوم، ويقول: هذا قدره الله عليَّ، وهذا خلق الله؟ فلا يقول ذلك إنسان معه أي عقل.

٤٩ وَلا تَغْضَبَنْ يَوْمًا عَلَى سَافِكٍ دَمًا وَلا سَارِقٍ مَالا لِصَاحِبِ فَاقَةِ

٥٠ وَلا شَاتِمٍ عِرْضًا مَصُونًا وَإِنْ عَلا وَلا نَاكِحٍ فَرْجًا عَلَى وَجْهِ غِيَّةِ

٥١ وَلا قَاطِعٍ لِلنَّاسِ نَهْجَ سَبِيلِهِمْ وَلا مُفْسِدٍ فِي الأَرْضِ فِي كُلِّ وِجْهَةِ

٥٢ وَلا شَاهِدٍ بِالزُّورِ إِفْكًا وَفِرْيَةً وَلا قَاذِفٍ لِلْمُحْصَنَاتِ بِزَنْيَةِ

٥٣ وَلا مُهْلِكٍ لِلْحَرْثِ وَالنَّسْلِ عَامِدًا وَلا حَاكِمٍ لِلْعَالَمِينَ بِرِشْوَةِ

٥٤ وَكُفَّ لِسَانَ اللَّوْمِ عَنْ كُلِّ مُفْسِدٍ وَلا تَأْخُذَنْ ذَا جُرْمَةٍ بِعُقُوبَةِ

٥٥ وَسَهِّلْ سَبِيلَ الْكَاذِبِينَ تَعَمُّدًا عَلَى رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ جَاءٍ بِفِرْيَةِ

٥٦ وَإِنْ قَصَدُوا إِضْلالَ مَنْ يَسْتَجِيبُهُمْ بِرَوْمِ فَسَادِ النَّوْعِ ثُمَّ الرِّيَاسَةِ

الشرح:

متابعة لرد شيخ الإسلام على الذين يحتجون بالقدر ذكر أنه إذا كان كذلك فلا ينكرون على الكفار، ولا يلومون كل كافر، أو كل من غوى وخرج عن المحجة، ويلزمهم الإعراض عن الظلمة، من ظلم أحدًا في نفس أو مال أو محارم فيعرضون عنه ولا يلومونه.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَلا تَغْضَبَنْ يَوْمًا عَلَى سَافِكٍ دَمًا وَلا سَارِقٍ مَالا لِصَاحِبِ فَاقَةِ

قوله:

(وَلا تَغْضَبَنْ يَوْمًا)

أي لا تغضب، والخطاب لمن احتج بالقدر.

(عَلَى سَافِكٍ دَمًا)

أي: لو اعتدى عليك أحد وقتل أباك أو ابنك لا تغضب عليه، بل عليك أن تقول: هذا قدر وترضى بفعله وأن هذا مقدر، مع أن هذا ليس بصحيح، فإن كل من رأى أحدًا يعتدي عليه فلابد أنه يغضب، ولابد أنه يكافح عن نفسه، ولا يرضى إذا قال: هذا قدر الله، كما ذُكر أن عمر بن الخطاب ﷺ أُتِي بسارق فأمر بقطع يديه، فقال عمر ﷺ للسارق: «ما حملك؟» أي: على السرقة، قال السارق: «قضاء الله» أي: إنه مكتوب عليَّ، وهذا قدر الله، فقطع يده، وقال: «هذه للسرقة»، وجلده وقال: «هذه لكذبك على الله»[1]، فشيخ الإسلام يقول:

(وَلا سَارِقٍ مَالا لِصَاحِبِ فَاقَةٍ)

أي: لا تغضب على سارق المال، ولو كان المسروق منه محتاجًا إلى ماله، وصاحب فاقة وشدة، اعتدى عليه إنسان واختلس ماله وتركه فقيرًا لا شيء معه، فهل ترضى بذلك وتوافق على هذا السارق؟ فإنك إذا احتججت بالقدر، أنكر عليك الناس، عرفوا أن هذا السارق ومن أشبهه عليهم عتاب شديد؛ لكونهم تعدوا على المسلمين وظلموهم، وكذلك من يحاول ضربك بأي شيء كما نُقل: أن إنسانًا أعمى كان عنده عبد له مملوك يقوده، وتعمد ذلك العبد أن يسقطه في حفر وفي مرتفعات، والأعمى الضرير لا يدري حتى يسقط في تلك الحفر، فأخذ يلوم عبده، فاحتج عليه بالقدر، وأن هذا قدر لا تلمني على شيء مقدر، فعند ذلك تغافله وضربه ضربة شديدة بالعصا، فأخذ يلومه: يا سيدي كيف تضربني هذه الضربة؟ فقال: هذا قدر، أنت تقول إنك تسقطني

---

(١) أخرج هذا الأثر الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص٣١٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/١٦٩).

في الحفر بقدر، وأنا ضربتك بقدر، فلا تلمني؛ لأنه شيء مقدر.

ثم يقول شيخ الإسلام:

وَلا شَاتِمٍ عِرْضًا مَصُونًا وَإِنْ عَلا   وَلا نَاكِحٍ فَرْجًا عَلَى وَجْهِ غِيَّةِ

أي: لا تغضب على مثل هؤلاء الذين يشتم أحدهم العرض المصون، يعني: يغتاب غيره ويقدح فيه، ويهتك عرض إنسان مصون لم يعتدِ على شيء، ولو كان ذلك الشاتم تعدى عليه فلا تشتمه، ولا تعتب عليه فعله، ولا تغضب من فعله، ولا تنكر فعله؛ لأنه قد يحتج بالقدر، ويقول: شتمي له مقدر، لست أنا الذي فعلته بل مكتوب عليَّ، فأنت إذا شتم عرضك، أو قدح فيك، أو قدح في نسبك أو نحو ذلك، فهل ترضى وتوافق على ذلك؟ الواقع أن من سبك فإنك تسبه، وهذا جائز؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فأما أن يقول: رضيت بشتمهم لي ولو انتهكوا عرضي، وأنا قد أصبحت مصونًا عرضي، والإنسان يُثاب على صيانة عرضه، ومع ذلك يشتمونه ويقدحون فيه، والعادة أنه لا يرضى، بل يطلب القصاص، أو يطلب إقامة الحد أو نحو ذلك.

قوله:

(وَلا نَاكِحٍ فَرْجًا عَلَى وَجْهِ غِيَّةِ)

أي: على وجه الغي الذي هو الزنى، أي: لا تنكر على الذي وطئ فرجًا حرامًا، ولا تلمه ولو زنى بأمك أو بأختك أو بابنتك أو زوجتك، وذلك لأنه قد يحتج بما تحتج به، فيقول: إن هذا مقدر عليَّ، إنه مكتوب عليَّ، وإنني ما أتيت بشيء من عندي، الله تعالى هو الذي كتبه عليَّ، ولا حيلة لي في رد

ما كتبه الله، هل تقول ذلك؟ لاشك أنك تنكر عليه وتحاول قتله؛ لأنه فجر بمحرمك الذي تغار عليه.

يقول - رحمه الله -:

وَلا قَاطِعٍ لِلنَّاسِ نَهْجَ سَبِيلِهِمْ وَلا مُفْسِدٍ فِي الأَرْضِ فِي كُلِّ وِجْهَةِ

أي: لا تغضب على قاطع الطريق الذي يعترض للناس في الطرق، ثم يسفك الدماء، وينتهب الأموال، ويزني بالفروج، ويقتل الأنفس، مع أن الله تعالى قد ذكر جزاءهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، فعلى عقيدتكم أيها الجبرية أنه لا لوم عليهم، وأن لهم أن يقطعوا الطريق ويحتجوا بالقدر، يجلسون في الطرق ويقتلون من مر بهم، وينتهبون الأموال، ويزنون بالفروج، ولا لوم عليهم إذا قالوا: هذا قدر، ولا يجوز على قولكم المدافعة لهم:

(نَهْجَ سَبِيلِهِمْ)

السبيل هو: الطريق، يقطعون الطريق، وقد يحتجون بالقدر فيلزمك أن توافقهم على ذلك، ولاشك أن هذا خطأ بين.

ثم يقول:

(وَلا مُفْسِدٍ فِي الأَرْضِ فِي كُلِّ وِجْهَةِ)

يعني: الذين يفسدون في الأرض في كل وجهة اتركهم يفسدون بأي نوع من الفساد، يتلفون الأموال - مثلاً - ويفسدون الشوارع، يحرفون فيها فرجًا تؤدي بمن سلكها إلى الهلاك ونحو ذلك، أو أي نوع من أنواع الفساد بقتل أو بنهب أو ضرب أو نحو ذلك، والله تعالى قد نهى عن الفساد بقوله تعالى: ﴿وَلَا

تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهؤلاء يحتجون بالقدر على فعل المفسد، فيقولون: لا يُلام من أفسد، وقد ذكر الله أن الإفساد من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[البقرة: ١١]، هذه مقالة المنافقين، فالذين يبيحون الفساد في الأرض أشبهوا المنافقين، كأنهم يقولون: مَنْ أفسد في الأرض بأي نوع من الفساد فلا لوم عليه؛ لأنه ما أقدم على شيء من قِبل نفسه بل مكتوب عليه أو مكره على ذلك.

قال الشيخ - رحمه الله -:

وَلا شَاهِدٍ بِالزُّورِ إفْكًا وَفِرْيَةً ... وَلا قَاذِفٍ لِلْمُحْصَنَاتِ بِزَنْيَةِ

أي: لا تغضب على شاهد الزور ولو كان شاهدًا بالإفك أو بالفرية أو بالكذب، وشهادة الزور هي: أن يشهد وهو كاذب، ويترتب على شهادته إحلال حرام أو تحريم حلال، أو قتل نفس معصومة، أو أخذ مال أو نحو ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢]، وذكر النبي ﷺ أن ذلك من أكبر الكبائر، قال - عليه الصلاة والسلام -: **(ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟)** قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: **(الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وكان مُتَّكِئًا فقال: ألا وَقَوْلُ الزُّورِ ألا وَشهادة الزُّورِ، قال: فما زَالَ يُكَرِّرُهَا حتى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ)**[1]، أي: أخذ يكرر: **(ألا وَقَوْلُ الزُّورِ ألا وَشهادة الزُّورِ)**؛ وذلك لأن الله تعالى نهى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠]، فالذي يشهد بالزور يحل الحرام لمن شهد له، وجاء في الحديث الذي في السنن:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(**لَنْ تَزُولَ قَدَما شَاهِدِ الزُّورِ حتى يُوجِبَ اللَّهُ له النَّارَ**)[1]، نعوذ بالله، فأنت لا تغضب على شاهد الزور، ولا على الأفاك الأثيم، ولا على المفتري، والفرية هي: الكذب الصريح.

قوله:

(وَلا قَاذِفٍ لِلْمُحْصَنَاتِ بِزَنْيَةِ)

أي: ولا تغضب أيضًا على القاذف للمحصنات، الذي ذكر الله عقوبته بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ [النور: ٤ - ٥]، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣] وعيد شديد، وفي الحديث قال النبي ﷺ: (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» وذكر منهن: «**وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ**)[2]، فأنت أيها المحتج بالقدر لا تغضب على من قذف المحصنات بالزنى وهو كاذب، فلا لوم عليه؛ لأنه على طريقته، وسوف يقول: هذا مقدر عليَّ ليس لي اختيار، فتكون قد أوقعته فيما حرم الله، وأبحت له هذا الأمر.

قال الشيخ - رحمه الله -:

وَلا مُهْلِكٍ لِلْحَرْثِ وَالنَّسْلِ عَامِدًا ... وَلا حَاكِمٍ لِلْعَالَمِينَ بِرِشْوَةِ

أي: لا تغضب على الذي يحرق ويهلك الحرث والنسل عامدًا؛ لأنه قد يحتج بالقدر، والله تعالى أنكر ذلك على من فعله، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٣٧٣)، وأبو يعلى (١٠/ ٣٩)، والحاكم (٤/ ٩٨) وصححه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥]، يعني: إذا تولى أو ذهب أخذ يسعى في الأرض بالفساد، ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾، أي: ما يقدر عليه، أي يهلك حروث الناس، ويقطع أشجارهم، ويقلع زروعهم، ويهلك النسل، والنسل قد يدخل فيه الأطفال والأولاد، وقد يدخل فيه أيضًا البهائم أو أطفال البهائم من أولاد الإبل، أو أولاد البقر، أو أولاد الغنم، كل ذلك من النسل الذي ذكر الله بقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، فأنت يلزمك أن لا تغضب على من يهلك الحرث والنسل متعمدًا، بل إذا احتج عليك بالقدر فاتركه يفعل ما يشاء.

قوله:

(وَلا حَــاكِمٍ لِلْعَــالَمِينَ بِرِشْــوَةٍ)

أي: كذلك لا تغضب على من يحكم بين الناس ويأخذ الرِشوة، وقد ورد أن النبي ﷺ قال: **(لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ)**[1]، والرِشوة: أخذ المال لمجرد الحكم بالباطل، أو لمجرد الميل مع صاحب الرشوة الذي بذلها، وتقديمه على غيره، ونحو ذلك؛ لأجل مال دفعه، فأنت إذا رأيت الحاكم الذي يحكم بالرشوة فلا تغضب عليه، وذلك لأنه قد يحتج بالقدر ويقول: هذا مكتوب عليَّ وليس لي حيلة، ولا أقدر على أن أترك ذلك، وهو شيء واقعي ليس لي فيه حيلة، فلك أن تعذر مثل هؤلاء كلهم.

يقول - رحمه الله -:

وَكُفَّ لِسَانَ اللَّوْمِ عَنْ كُلِّ مُفْسِدٍ ... وَلا تَأْخُذَنْ ذَا جُرْمَةٍ بِعُقُوبَةِ

---

(١) أخرجه الترمذي(١٣٣٦)، وأحمد (٢/٣٨٧)، وابن حبان (١١/٤٦٧)، والحاكم (٤/١١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: كف لسانك عن كل مفسد، ولا تغضب عليه، وأقره على فساده، أيًا كان ذلك الفساد حتى ولو قتل، وسرق، وانتهب، وسكر، وزنى، وأفسد بما يقدر عليه من الفساد، كف اللسان عنه، لا تلمه ولا تنكر عليه؛ لأنه على قاعدتك معذور؛ لأنك تحتج بالقدر.

قوله:

(وَلا تَأْخُذَنْ ذَا جُرْمَةٍ بِعُقُوبَةِ)

أي: أيًّا كان ذلك المجرم إذا وقع في إجرام، وقع في ذنب مع المجرمين فلا تعاقبه، ولا تأخذه بأي عقوبة؛ لأنه على قولك معذور؛ لأنه ما فعل إلا شيئًا مباحًا له، فلا تأخذه بأي عقوبة أيًّا كان ذلك الإجرام، ولو كان هدمًا، أو قطعًا، أو قتلاً، أو إتلافًا للحرمات، أو إفسادًا في الأرض، أي نوع من أنواع الإجرام لا تقل: إن عليه عقوبة، بل اتركه يفعل ما يشاء على قاعدتك أنه قد قدر عليه، وأنه لا حيلة له، وأنه مجبور على هذا الفعل.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَسَهِّلْ سَبِيلَ الْكَاذِبِينَ تَعَمُّدًا عَلَى رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ جَاءٍ بِفِرْيَةِ

هذا خطاب لذلك الذمي الذي يحتج بالقدر، فيقول: في هذه الحال سهل سبيل الكاذبين واعتذر عنهم، ولو كان كذبهم تعمدًا على الله، لو تعمدوا الكذب على الله وجاؤوا بكل فرية، أو كذبوا على الأنبياء فاعتذر عنهم؛ وذلك لأنهم في نظرك مُقدر عليهم، يحتجون بأن هذا قدر، وأنه لا قدرة لهم على رد ذلك، فيلزمك على هذا أن ترخص لكل كذاب يكذب على الله، وكذلك يكذب على الناس، ويحتال عليهم، ويأخذ أموالهم عن طريق الكذب لا لوم عليه، على اعتقادك يا هذا، ولاشك أن الكاذب الذي يكذب على الله

يعتبر كافرًا؛ لأنه تعمد الكذب على ربه، وافترى على الله فرية عظيمة، وقد قال الله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[آل عمران: ٦١]، إذا كذب على النبي ﷺ فإن ذنبه كبيرة، حتى قال النبي ﷺ: **(مَنْ كَذَبَ عَليَّ مُتعمدًا فليبوأ مقعدهُ من النار)**(١)، وهذا وعيد شديد، فالكذب على النبي ﷺ من أكبر الكبائر؛ لأنه بهذا الكذب يحل الحرام، ويحرم الحلال، ويفتري على الله، وعلى نبيه ﷺ، وكذلك أيضًا الكذب على الله، أكبر وأكبر، فإذا افترى على الله، وأدخل في الشرع ما ليس منه، وغير شيئًا من الأحكام، وزاد في الشريعة ما ليس منها، أو نقص أو حرف الكلم عن مواضعه، أو قال على الله ما لم يقل، أو عارض كلام الله بأي نوع من المعارضة، فإن كل ذلك على معتقدكم لا إثم فيه، أي: الأصل أنه مباح لا حرج فيه، فأنت أيها المحتج بالقدر سهل السبيل لهؤلاء الكذابين على ربهم، ولو جاؤوا بأكبر الفرية، ولو افتروا على الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في آيات كثيرة(٢)، افترى يعني: تعمد الفرية التي هي الكذب، لا أحد أظلم من أهل الفرية، فيلزمك أن تسهل لهؤلاء المفترين أمرهم، وتجعل افتراءهم ليس فيه إثم ولا عقوبة؛ لأنهم قد يحتجون كما تحتج أنت بهذا القدر.

وكل هذه الأشياء دليل على أن الله تعالى مكّن العباد، وجعل لهم قدرة على المعاصي، يُعاقبون عليها إذا فعلوها باختيارهم، فدل على أن لهم قدرة عليها، وقدرة على الطاعات يُثابون عليها، وهذه القدرة خاضعة لقدرة الله

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في سورة الأنعام: الآية (٢١)، والآية (٩٣)، وسورة هود: الآية (١٨)، وسورة العنكبوت: الآية (٦٨)، وسورة الصف الآية (٧).

تعالى، فالأصل أن الله هو الذي قدَّر المقادير كلها، وجعل لكلٍ استطاعة يزاول بها الأعمال، ومكنه من هذه المزاولة، فإن عمل أعمالاً سيئة كالكفر والشرك والمعاصي والبدع وأصر عليها واستمر عليها، فإنه يعتبر ملومًا، قد يعاقبه الله تعالى بما يستحقه من العقوبة، وقد يوفقه الله تعالى للتوبة والإقلاع عن هذه الذنوب وما أشبهها، وكذلك أيضًا مكّن العباد الصالحين، وأقدرهم على الأعمال الصالحة، وإن كانت قدرتهم خاضعة لقدرته، ولكنها تُضاف إليهم، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أفعالهم، ولهم إرادة، والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم، فهذا مما يُرد به على هؤلاء الذين يحتجون بالقدر على المعاصي كما في قول هذا المعترض:

أَيَا عُلَمَاءَ الدِّينِ ذِمِّيٌّ دِينِكُمْ ... تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ

إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ ... وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي

فأجابه الشيخ - رحمه الله - بهذا الجواب المتين.

قوله - رحمه الله -:

وَإِنْ قَصَدُوا إِضْلَالَ مَنْ يَسْتَجِيبُهُمْ ... بِرَوْمِ فَسَادِ النَّوْعِ ثُمَّ الرِّيَاسَةِ

إي: إذا قصدوا بالكذب إضلال من يستجيب لهم فهم بزعمك معذورون، ولو قصدوا إضلال الناس، ولو راموا فساد النوع الإنساني، ولو قصدوا الرئاسة على الناس، فاعتذر عنهم وقل: إن هذا مكتوب عليهم؛ لأنهم عملوا هذا بقدر، ولو أضلوا الخلق، ولو أفسدوا في الناس، ولو قدر بذلك أن يكونوا رؤساء، وأن يكونوا أكابر فيقتلون، ويفسدون وينتهبون، ويفعلون الفواحش ونحو ذلك، لا لوم عليهم على زعم من يحتج بالقدر.

٥٧ وَجَادِلْ عَنْ الْمَلْعُونِ فِرْعَوْنَ إِذْ طَغَى   فَأُغْرِقَ فِي الْيَمِّ انْتِقَامًا بِغَضْبَةِ
٥٨ وَكُلِّ كَفُورٍ مُشْرِكٍ بِإِلَهِهِ   وَآخَرَ طَاغٍ كَافِرٍ بِنُبُوَّةِ
٥٩ كَعَادٍ ونمروذ وَقَوْمٍ لِصَالِحٍ   وَقَوْمٍ لِنُوحٍ ثُمَّ أَصْحَابِ الايْكَةِ
٦٠ وَخَاصِمْ لِمُوسَى ثُمَّ سَائِرِ مَنْ أَتَى   مِنَ الأَنْبِيَاءِ مُحْيِيًا لِلشَّرِيعَةِ
٦١ عَلَى كَوْنِهِمْ قَدْ جَاهَدُوا النَّاسَ إِذْ بَغَوْا   وَنَالُوا مِنَ الْعَاصِي بَلِيغَ الْعُقُوبَةِ
٦٢ وَإِلا فَكُلُّ الْخَلْقِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ   وَلَحْظَةِ عَيْنٍ أَوْ تَحَرُّكِ شَعْرَةِ
٦٣ وَبَطْشَةِ كَفٍّ أَوْ تَخَطِّي قَدِيمَةٍ   وَكُلِّ حِرَاكٍ بَلْ وَكُلِّ سَكِينَةِ
٦٤ همو تَحْتَ أَقْدَارِ الْإِلَهِ وَحُكْمِهِ   كَمَا أَنْتَ فِيمَا قَدْ أَتَيْتَ بِحُجَّةِ
٦٥ وَهَبْكَ رَفَعْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ فَاعِلٍ   فِعَالَ رَدًى طَرْدًا لهذي الْمَقِيسَةِ
٦٦ فَهَلْ يُمْكِنن رَفْعُ الْمَلامِ جَمِيعِهِ   عَنْ النَّاسِ طُرًّا عِنْدَ كُلِّ قَبِيحَةٍ؟
٦٧ وَتَرْكُ عُقُوبَاتِ الَّذِينَ قَدْ اعْتَدَوْا   وَتَرْكُ الْوَرَى الإِنْصَافَ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ

الشرح:

قوله - رحمه الله -:

وَجَادِلْ عَنْ الْمَلْعُونِ فِرْعَوْنَ إِذْ طَغَى   فَأُغْرِقَ فِي الْيَمِّ انْتِقَامًا بِغَضْبَةِ

فرعون طغى وبغى، وتكبر وتجبر وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وأضله الله تعالى بحكمة، ومع ذلك فإن أفعاله تُنسب إليه، فعلى تقديرك أنت أيها القدري، أيها الجبري، جادل عنه، وقل: إنه معذور، وإنه لا لوم عليه، وأن الله هو الذي ظلمه عندما أغرقه في اليم، في قول الله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ

وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٣٨ – ٤٠]، جادل عنهم وقل: إنهم مظلمون، وأن الله قد ظلمهم عندما أغرقهم؛ لأنهم ما فعلوا شيئًا من أنفسهم، بل هم مجبورون على هذا الفعل.

ثم يقول – رحمه الله –:

وَكُلُّ كَفُورٍ مُشْرِكٍ بِإِلَهِهِ وَآخَرَ طَاغٍ كَافِرٍ بِنُبُوَّةِ

أي: جادل عن الكفار، وعن المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وعن كل الطغاة، وعن المكذبين للرسل، وقل إنهم معذورون؛ لأنهم مُقدر عليهم، ومجبورون على مقالاتهم، ولا حيلة لهم، فهم معذورون، ولو أشركوا، ولو دعوا مع الله آلهة أخرى، ولو خالفوا ما خلقهم الله تعالى له من قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فعبدوا غير الله، واتخذوا آلهة من دون الله تعالى، يدعونهم، ويصرفون لهم خالص العبودية، ولو طغوا وبغوا، ولو كذبوا الأنبياء، ولو قالوا للنبي ﷺ: ساحر أو مجنون، ولو قالوا: ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ [سبأ: ٤٣]، هم معذورون على معتقد هؤلاء الجبرية.

ثم مثَّل بقوله – رحمه الله –:

كَعَادٍ ونمروذ وَقَوْمٍ لِصَالِحٍ وَقَوْمٍ لِنُوحٍ ثُمَّ أَصْحَابِ الايْكَةِ

أي: هؤلاء ذكر الله أنه عاقبهم.

قوله:

(كَعَادٍ)

أي: قد ذكر الله أنه أهلك عاد الأولى، بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر: ١٩].



قوله:

(ونمـــــــروذ)

أي: وكذلك قصة النمرود الذي خاصم إبراهيم - عليه السلام - في قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهذا طاغٍ من الطغاة والبغاة الذين تجبروا وتكبروا، وادعى أنه هو الرب، وأنه يحيي ويميت، فعلى الجبرية أن يعذروه؛ لأنه ما فعل شيئًا إلا بإكراه من الله تعالى، أي: الله تعالى هو الذي قدر ذلك عليه وألزمه بذلك، فلا لوم عليه فيما قاله، وفيما فعله.

قوله:

(وَقَــــوْمٍ لِصَـــالِحٍ)

وهم ثمود، أرسل عليهم صيحةً واحدة، قال تعالى: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩]، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣٠ - ٣١].

قوله:

(وَقَــــوْمٍ لِنُــــوحٍ)

وكذلك قوم نوح - عليه السلام - أغرقهم الله تعالى، وأنجى نوحًا - عليه السلام - ومن معه، قال تعالى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢٠]، ذهبت أجسادهم للغرق، وأرواحهم للحرق، أغرق الله كل من على الأرض إلا أصحاب السفينة.

قوله:

(ثُـــــمَّ أَصْـــــحَابِ الأيْكَــــةِ)

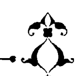
وهم قوم شعيب - عليه السلام - فإنهم كذبوا شعيبًا - عليه السلام - فكانوا يبخسون المكيال والميزان، ويحتجون بأن هذا جائز لهم التصرف في أموالهم، وقالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧]، أي: أتنهانا عن بخس الكيل والوزن، وعن عبادة المعبودات التي يعبدها آباؤنا، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقد قص الله تعالى قصص عاد وثمود وقوم نوح وقوم شعيب وقوم لوط، الذين كانوا يأتون الذكران من العالمين، وذكر عقوباتهم، فعلى القدرية أن يعتذروا عنهم، وأن يقولوا: إنهم معذورون، إنهم ما فعلوا شيئًا من قِبل أنفسهم، بل الأصل أنهم مجبورون على ذلك، ومكرهون عليه لا حيلة لهم، فيعتبر الله تعالى قد ظلم هؤلاء، وإذا عذبهم في النار فإنهم عذبهم - على تقدير الجبرية - ظالمًا لهم نعوذ بالله.

ثم يقول:

وَخَاصِمْ لِمُوسَى ثُمَّ سَائِرِ مَنْ أَتَى ... مِنْ الأَنْبِيَاءِ مُحْيِيًا لِلشَّرِيعَةِ

أي: أنبياء الله تعالى الذين جاؤوا محيين للشريعة، عليك أيها القدري أن تخاصم، وأن تنكر عليهم، وأن تبين للناس أن يعملوا ما يشاؤون، وأنهم إذا عملوا عملاً فإنهم معذورون، لاموا الأنام ولا استطاعة لهم على شيء من الأمور، بل الأصل أنهم من المكرهين، قد أكرهوا على أعمالهم، فلماذا تنكر يا موسى على فرعون وعلى بني إسرائيل أفعالهم، ولماذا تنكر يا هود، ويا صالح، ويا نوح، ويا شعيب، ويا لوط، وسائر الأنبياء، ولماذا تنكر يا إبراهيم على قومك وتحطم معبوداتهم، فإنهم ما عبدوها بأنفسهم، وإنما



أكرهوا على ذلك، فعليك أن تعذرهم، فهؤلاء الجبرية يعتبرون خصومًا لله تعالى، وكذلك خصومًا لأنبيائهم، الذين أرسلهم الله ليبلغوا رسالته، فعليك أن تنكر عليهم.

ثم قال:

عَلَى كَوْنِهِمْ قَدْ جَاهَدُوا النَّاسَ إِذْ بَغَوْا وَنَالُوا مِنْ الْعَاصِي بَلِيغَ الْعُقُوبَةِ

أي: هل تنكر على موسى ومن معه من الأنبياء ومن قبله ومن بعده، تقول: لماذا تجاهدون الناس، والناس أحرار في أعمالهم، أو الناس لا يفعلون شيئًا بل أعمالهم كلها مكتوبة، ومجبرون وملجؤون عليها، فلا تجاهدوا في سبيل الله كل من بغى وطغى وتجبر واعتدى، ولا تدعوهم إلى التوحيد، ولا تنكروا عليهم الشرك، ولا تبينوا لهم آثار المعاصي، ولا تنكروا عليهم ما وقع من هذه المعاصي، وهذه المحرمات، فإنهم معذورون على تقديركم لم يفعلوا شيئًا، إنما أفعالهم التي فعلوها كلها ملزمة عليهم، وملجؤون عليها لا حيلة لهم في ردها، هذا على تقدير هؤلاء الذين هم القدرية المجبرة، ولكنهم لا يقولون ذلك لمن اعتدى عليهم، فمن ضربهم لم يقروه ولم يوافقوه على ذلك، ولم يقولوا: أنت مقدر عليك، بل الأصل أنهم يضربونه، وأنهم يعاتبونه ويقولون: لماذا فعلته؟ فلو احتج بالقدر ما قبلوا ذلك منه، ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - في الميمية كما سبق:

وعند مراد الله تفنى كميت وعند مراد النفس تسدي وتلحم

وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا ظهيرًا على الرحمن للجبر تزعم

أي: أنك إذا خالفت ما أُمرت به تحتج بالقضاء والقدر، وتزعم أنك مجبور، ولا تعذر من اعتدى عليك، ولهم قصص في ذلك مشهورة، ذكر كثيرًا منها

العلماء في مؤلفاتهم، كابن القيم - رحمه الله - في كتابه الكبير الذي ألفه فيما يتعلق بالقضاء والقدر وسماه (شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل)، وكذلك لشيخ الإسلام - رحمه الله - رسائل في بيان القضاء والقدر، قد طُبعت في المجلد الثامن من مجموع الفتاوى، والذي طُبعت فيه هذه القصيدة.

وعلى كل حال: فإن الأصل أن المسلمين يفعلون ما أمرهم الله به، ويعلمون أن الله تعالى هو الذي يعينهم، ويسددهم ويقويهم، وإذا وقعوا في معصية فلا يحتجون بالقدر، بل يعرفون أن أنفسهم ظالمة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[النساء: ٧٩]، أي: السوء والعقوبة التي تأتيك بسبب أعمالك السيئة، والمعاصي التي تفعلها أنت تلام عليها، وتعاقب على فعلها؛ لأنها من نفسك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورى: ٣٠]، فجعل ذلك بسبب أنفسهم، وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، أي: لوموا أنفسكم، كما يقوله الشيطان لأهل النار: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وجاء في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: **(يا عِبَادِي إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ)**[1].

ثم يقول الشيخ - رحمه الله -:

وَإلا فَكُلُّ الْخَلْقِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ ... وَلَحْظَةِ عَيْنٍ أَوْ تَحَرُّكِ شَعْرَةِ
وَبَطْشَةِ كَفٍّ أَوْ تَخَطِّي قَدِيمَةٍ ... وَكُلِّ حِرَاكٍ بَلْ وَكُلِّ سَكِينَةِ
همو تَحْتَ أَقْدَارِ الإِلَهِ وَحُكْمِهِ ... كَمَا أَنْتَ فِيمَا قَدْ أَتَيْتَ بِحُجَّةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

لاشك أن الخلق في كل ما يقولونه، وما يتلفظون به، وكذلك كل لحظاتهم التي ينظرون إليها، وأيضًا كل تحرك شعرة منهم، وكل بطشة كف، يعني: إذا بطش أحدهم بكفه أو كذلك خطوة يتخطاها بقدمه، وهكذا أيضًا كل حركة يتحركها، أو كل سكينة يسكنها، كل ذلك:

(تَحْـتَ أَقْـدَارِ الإِلَـهِ وَحُكْمِـهِ)

أي: أنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد، فاللفظات والحركات والخطا والبطش والسكينة والأعمال سيئات أو حسنات، كلها خاضعة لقدر الله تعالى وحكمه:

(كَمَا أَنْتَ فِيمَا قَدْ أَتَيْتَ بِحُجَّةِ)

ولكن لله الحجة، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ يعني: على عباده ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنعام: ١٤٩]، لكن من حكمته أنه أعطاهم قوة، وأعطاهم قدرة، يستطيعون بها مزاولة الأعمال؛ فلأجل ذلك يعاقبهم على الأعمال السيئة التي فعلوها، ويثيبهم على الحسنات التي عملوها، مع أنها واقعة كلها بقدر الله، لا يكون شيء إلا بقدر الله، ولله تعالى حكمة فيها، لله حكمة في أن مكن الكفار من الكفر، والمبتدعة من البدع، والعصاة من المعصية ومن عمل الذنوب، ولكن لا يحتجون بذلك، وقد ذمَّ الله الذين يحتجون بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ذمَّهم وأنكر عليهم لما قالوا ذلك، وذكر أنه هو الذي أمرهم ونهاهم ومكنهم وأعطاهم فلا يفعلون إلا ما أمرهم الله تعالى به، وكلفهم به.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَهَبْكَ رَفَعْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ فَاعِلٍ — فِعَالَ رَدًى طَرْدًا لِهَذِي الْمَقِيسَةِ

فَهَلْ يُمْكِنن رَفْعُ الْمَلامِ جَمِيعِهِ — عَنِ النَّاسِ طُرًّا عِنْدَ كُلِّ قَبِيحَةِ

أي: هب أنك رفعت اللوم عن كل فاعل ردى، طردًا لهذه المقيسة التي هي إنكارك للوم من عصى، بل تقول: لا يُلام العاصي، تنكر على من لام المعاصي والعصاة، فهب أنك رفعت اللوم عن كل من فعل رَدَاءً، أو عن كل من فعل سيئة، طردًا لهذه المقيسة، فهل يمكن أن نرفع الملام عن الزاني ونقول بقدر؟ عن السارق ونقول بقدر؟ عن القاتل ونقول بقدر؟ لا يمكن ذلك، وقد ذُكر أن رجلاً سرق وجيء به إلى عمر بن الخطاب ﷺ وعزم على قطع يده فقال ذلك السارق: إن هذا بقدر الله، كيف تقطعونني وقد قدر الله عليَّ ذلك؟ فقال عمر ﷺ: (أنت سرقت بقدر الله، ونحن نقطع يدك بقدر الله)[1].

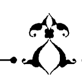
ولما أقبل عمر ﷺ إلى الشام وذُكر له وقوع الطاعون بالشام عزم على الرجوع، فقال له أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: أَفِرَارًا من قَدَرِ اللَّهِ؟ فقال عُمَرُ ﷺ: (لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ)[2]، الله تعالى قدّر لنا هذا الرجوع الذي نرجعه، ومع ذلك فإنه لا يغني عن قدر الله، لو هربنا وقدر الله علينا مرضًا، أدركنا ذلك المرض. كما ذُكر أن بعض البصريين هرب من الطاعون، فركب حمارًا له، ومضى بأهله نحو سفوان[3]، فسمع حاديًا يحدو خلفه يقول:

---

(١) ذكر ذلك الأثر شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٣/٢٣٤)، وابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية (ص١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سفوان: ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة. انظر: معجم البلدان (٣/٢٢٥).



لن يسبق الله على حمار ولا على ذي ميعة طيار

أو يأتي الحتف على مقدار قد يصبح الله أمام الساري[1]

فلحقه الطاعون ومات.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَتَرْكُ عُقُوبَاتِ الَّذِينَ قَدْ اعْتَدَوْا وَتَرْكُ الْوَرَى الإِنْصَافَ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ

أي: هل يمكن أن نترك العقوبات للذين تعدوا كقطاع الطريق، ونقول: إنهم معذورون، مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾[المائدة: ٣٣]، فهل نترك عقوبتهم؟ وهل نترك الورى؟ أي: نترك لهم أخذ حقهم، والإنصاف لهم من المعتدي، ونقول: إن هذا المعتدي قد قدر عليه، ولا لوم عليه فيما فعله؟ فنترك أخذ الحق من الظالم، ونبيح له أن يظلم ولا ننصف الرعية، ولا ننتقم لهم؟ لاشك أن هذا نشر للفساد في الأرض، وترك للناس يظلم بعضهم بعضًا، ويعتدي بعضهم على بعض.

---

(١) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/٤٨٩)، وابن عبد البر في التمهيد (٦/٢١٤).

٦٨ فَلا تَضْمَنَنْ نَفْسٌ وَمَالٌ بِمِثْلِهِ وَلا يعْقَبَنْ عَادٍ بِمِثْلِ الْجَرِيمَةِ
٦٩ وَهَلْ فِي عُقُولِ النَّاسِ أَوْ فِي طِبَاعِهِمْ قَبُولٌ لِقَوْلِ النَّذْلِ مَا وَجْهُ حِيلَتِي
٧٠ وَيَكْفِيكَ نَقْضًا مَا بِجِسْمِ ابْنِ آدَمٍ صَبِيٍّ وَمَجْنُونٍ وَكُلِّ بَهِيمَةِ
٧١ مِنْ الأَلَمِ الْمَقْضِيِّ فِي غَيْرِ حِيلَةٍ وَفِيمَا يَشَاءُ اللَّهُ أَكْمَلُ حِكْمَةِ
٧٢ إِذَا كَانَ فِي هَذَا لَهُ حِكْمَةٌ فَمَا يُظَنُّ بِخَلْقِ الْفِعْلِ ثُمَّ الْعُقُوبَةِ
٧٣ وَكَيْفَ وَمِنْ هَذَا عَذَابٌ مُوَلَّدٌ عَنْ الْفِعْلِ فِعْلِ الْعَبْدِ عِنْدَ الطَّبِيعَةِ
٧٤ كَآكِلِ سُمٍّ أَوْجَبَ الْمَوْتَ أَكْلُهُ وَكُلٌّ بِتَقْدِيرٍ لِرَبِّ الْبَرِيَّةِ
٧٥ فَكُفْرُكَ يَا هَذَا كَسُمٍّ أَكَلْتَهُ وَتَعْذِيبِ نَارٍ مِثْلُ جَرْعَةِ غُصَّةِ
٧٦ أَلَسْتَ تَرَى فِي هَذِهِ الدَّارِ مَنْ جَنَى يُعَاقَبُ إِمَّا بِالقضا أَوْ بِشِرْعَةِ
٧٧ وَلا عُذْرَ لِلْجَانِي بِتَقْدِيرِ خَالِقٍ كَذَلِكَ فِي الأُخْرَى بِلا مَثْنَوِيَّةِ
٧٨ وَتَقْدِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ لِلذَّنْبِ مُوجِبٌ لِتَقْدِيرِ عُقْبَى الذَّنْبِ إلا بِتَوْبَةِ

الشرح:

قوله:

فَلا تَضْمَنَنْ نَفْسٌ وَمَالٌ بِمِثْلِهِ وَلا يعْقَبَنْ عَادٍ بِمِثْلِ الْجَرِيمَةِ

أي: على تقدير الاحتجاج بالقدر وقول الجبرية لا تضمن النفس، لو قتل قاتل فلا يُقتل، ولا يدفع ديته، ولا يفعل كفارة؛ لأنه مقدر عليه، وكذلك من تعمد إتلاف مال فلا يضمن ذلك المال الذي أتلفه؛ لأنه على هذا مقدر عليه، ولو أهلك الحرث والنسل، ولو هدم الحيطان والبيوت، ولو قطع الأشجار وأفسد الثمار، ولو أحرق الأموال وأتلفها واحتج بالقدر فإنه معذور على هذا القول.

(وَلا يعْقَبَنْ عَادٍ بِمِثْلِ الْجَرِيمَةِ)

والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، ويقول: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وعلى قول هؤلاء الجبرية لا لوم على المعتدي، لا يُعاقب العادي والمجرم بمثل جريمته، مع أن الله تعالى كتب ذلك بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فعلى هذا إذا قتل قاتلٌ واحتج بالقدر فإنه معذور، ويُترك المشرك وشركه، لقول الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٨ – ١٤٩]، فأنكر عليهم قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، وبيَّن أنهم ملومون على هذا، وإن كان مكتوبًا في سابق القدر، وقدرة الله أقوى من قدرتهم، فلذلك الأصل أن نقول: إن الله تعالى قدَّر المقادير، ولكن أعطى الإنسان قوة يفعل بها هذه الأفعال، فيفعل الجرائم ويُلام عليها، ويفعل الحسنات ويُثاب عليها، وعلى قول هؤلاء القدرية لا تضمن النفس المعتدية، ولا يُضمن المال، ولا يُعاقب العادي بمثل جريمته، بل يُتركون كلهم، يعبثون ويفسدون في الأرض، ويحتجون بالقدر، ولاشك أن هذا كله يخالف الشرع وما جاء به.

يقول الشيخ – رحمه الله –:

وَهَلْ فِي عُقُولِ النَّاسِ أَوْ فِي طِبَاعِهِمْ ... قَبُولٌ لِقَوْلِ النَّذْلِ مَا وَجْهُ حِيلَتِي

قوله:

(لِقَوْلِ النَّذْلِ)

أي هذا الناظم الذمي الذي يقول في أول أبياته :

إِذَا مَا قَضَى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ وَلَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي

يعني : أنه لا حيلة لي إذا قدّر الله عليَّ ذلك ، فهل عقول الناس يقبلون قوله ، وهل طباعهم يقبلون قوله؟ لاشك أن هذا افتراء وكذب ؛ وذلك لأنه لا يعذر من اعتدى عليه ، ولا من ضربه أو جرحه ، أو قطع له طرفًا ، أو أتلف له مالاً ، والناس بعقولهم وبطباعهملا يقبلون قوله ، بل ينكرون عليه ، ويعلمون أن من احتج بالقدر فإن حجتهم داحضة عند ربهم ، ثم إننا نؤمن بقضاء الله وقدره الذي قدَّره على عباده.

ثم يقول الشيخ - رحمه الله - :

وَيَكْفِيكَ نَقْضًا مَا بِجِسْمِ ابْنِ آدَمٍ صَبِيٌّ وَمَجْنُونٍ وَكُلٌّ بَهِيمَةِ

مِنْ الأَلَمِ الْمَقْضِيِّ فِي غَيْرِ حِيلَةٍ وَفِيمَا يَشَاءُ اللَّهُ أَكْمَلُ حِكْمَةِ

نعم ، نؤمن بأن الله تعالى حكيم عليم ، فهو الذي قدّر الآلام التي تصيب الإنسان ، والأمراض التي قدرها ، هل يُقال : إن الله ظلم هذا المسلم حيث قدَّر عليه هذا المرض الذي أقعده وأضناه وعاقه عن العمل وألزمه الفراش؟ كذلك إذا صار عندنا صبي ليس له ذنوب ورأيناه مريضًا أو مشلولاً أو معوقًا أو أصيب بمرض أو آفة أو نحو ذلك ، وهكذا أيضًا إذا رأينا مجنونًا فقد عقله ، فهل نلوم الرب تعالى ، ونقول : إن الرب قد أخطأ على هؤلاء الصبيان وعلى هؤلاء المجانين ، حيث سلط عليهم هذه العاهات ، وهكذا أيضًا البهائم تُصاب بالأمراض ، وتُصاب بالشلل ، وتُصاب بالعمى ، ونحو ذلك ، وليس لها ذنوب ، هل نوجه اللوم على الرب الذي قضى ذلك وقدره على هذه البهائم التي ليس لها ذنب؟ لاشك أن عقول الناس لا تقول ذلك.

بل يعرفون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قدَّر هذه الأشياء، وأن له الحكمة فيما قدَّره من الآلام التي قضاها ولا حيلة لأحد في رفعها، ونقول: **(مَا شَاءَ الله كَان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ)**[1]، ونقول: إن لله تعالى حكمة عظيمة في هذه الأمراض التي يُسلطها على الإنسان، نقول: إن مرض الإنسان فيه عبرة وموعظة، ليتذكر غيره من الأصحاء نعمة الله، وكذلك ما يُصاب به الصبيان والمجانين والبهائم من هذه الآفات وهذه الأمراض، ونقول أيضًا: إن لله تعالى حكمة عظيمة في هذه الأمراض، وفي هذه العاهات، ونحوها، والله تعالى حكيم عليم يضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، وله في ذلك حكمة، ومن ذلك أنه يكون عبرة لمن أنعم الله عليه بالصحة؛ ليشكر نعم الله، كما ذُكر «لما عُرِضت على آدم ذريته» أي: لما عرض الله على آدم صور أبنائه وذريته، «فرأى فضل بعضهم على بعضٍ» أي: رأى فيهم المشلول والأعمى والمعوق والأعرج، فقال: «أي ربِّ فهلا سويت بينهم؟»، فقال الله تعالى: «إني أريد أن أُشكر، يرى ذو الفضل فضله فيحمدني ويشكرني»[2]، فالعبد الذي كمّل الله خلقه إذا نظر إلى مَنْ هو دونه مِن ناقص الخلق شكر الله تعالى، وسأل ربه أن يُوزعه شكر نعمه، وأن يدفع عنه نقمه، ويقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، ويعرف أن لله تعالى حكمة في كل ما يقدره.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرج هذا الأثر عبد الرزاق (١٠/٤٢٤)، وابن أبي شيبة (٧/١٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/١٠٧)، عن قتادة والحسن موقوفًا. وأخرج نحوه مرفوعًا: ابن وهب في القدر (ص٦٧)، وأبو يعلى (١١/٢٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ثم قال - رحمه الله -:

إِذَا كَانَ فِي هَذَا لَهُ حِكْمَةٌ فَمَا يُظَنُّ بِخَلْقِ الْفِعْلِ ثُمَّ الْعُقُوبَةِ

أي: إذا عرفنا أن لله تعالى حكمة في إمراض الصبيان والمجانين والبهائم، وإصابة الآدميين بالأمراض مع أنهم من الأتقياء، إذا كان فيه لله تعالى حكمة، فكيف:

(يُظَنُّ بِخَلْقِ الْفِعْلِ ثُمَّ الْعُقُوبَةِ؟)

أي: الله تعالى هو الذي خلق الفعل ثم يُعاقب عليه، يعني: مكنهم من هذه الأفعال ومع ذلك يُعاقب عليه، لله تعالى حكمة في ذلك، كيف ننكر ذلك؟، فنحن نقر بخلق الله تعالى، نقر بأنه خالق الأفعال ومع ذلك يُعاقب عليها، ويثيب عليها هذا ما نؤمن به، ونعرف حقيقته وصحته.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَكَيْفَ وَمِنْ هَذَا عَذَابٌ مُوَلَّدٌ عَنْ الْفِعْلِ فِعْلِ الْعَبْدِ عِنْدَ الطَّبِيعَةِ

كَآكِلِ سُمٍّ أَوْجَبَ الْمَوْتَ أَكْلُهُ وَكُلٌّ بِتَقْدِيرِ لِرَبِّ الْبَرِيَّةِ

قوله:

(وَمِنْ هَذَا عَذَابٌ مُوَلَّدٌ عَنْ الْفِعْلِ)

أي: الإنسان قد يُعاقب على فعله بنفسه، الذي هو:

(فِعْلِ الْعَبْدِ عِنْدَ الطَّبِيعَةِ)

فلو أكل السم الذي أوجب قتله، وقال: إنه مقدر لكان عليه لوم، ولو كان كل بتقدير رب البرية، فإنه يُعاقب، ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: **(من تَرَدَّى من جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ في نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بها في بَطْنِهِ في نَارِ**

جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبدًا)[1]، فأوجب عليه العقوبة مع أنه تعدى على نفسه، عذاب مولد عن الفعل الذي هو فعل العبد عند الطبيعة، كيف لا يُعاقب عليه؟ الله تعالى قد أخبر أنه يعاقب على هذا الفعل الذي هو أكل السم ونحو ذلك ولو كان كل شيء بقضاء الله تعالى وبقدره.

ثم يقول المؤلف - رحمه الله -:

فَكُفْرُكَ يَا هَذَا كَسُمٍّ أَكَلْتَهُ وَتَعْذِيبِ نَارٍ مِثْلُ جَرْعَةِ غُصَّةِ

أي: أنك كافر، وأنك ملوم على كفرك، كما تُلام إذا أكلت السم لتعذيبك، ولقتل نفسك، يلومك الناس، وينكرون عليك، ولا تقل: هذا مقدر عليَّ، فكذلك كفرك تُعذب عليه.

قوله:

(وَتَعْذِيبِ نَارِ)

يعني: في الآخرة:

(مِثْلُ جَرْعَةِ غُصَّةِ)

أي: مثله كمثل جرعة من سم أو نحوه أكلته وغصصت به، أو سبب موتك.

ثم يقول - رحمه الله -:

أَلَسْتَ تَرَى فِي هَذِهِ الدَّارِ مَنْ جَنَى يُعَاقَبُ إِمَّا بالقضا أَوْ بِشِرْعَةِ

لاشك أن كلاً يرى ويشاهد في هذه الدنيا أن الجاني يُعاقب: إما عقوبة قضائية من الله تعالى، وإما عقوبة بما قدره الله، وبما شرعه، فهكذا كل من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

جنى جناية، فالقاتل يُقتل بالشرع، وكذلك السارق، وقاطع الطريق، وقاطع الطرف، وشارب الخمر ونحوهم، كلٌ يُعاقب، إما أن يعاقبه الله تعالى بعقوبة من عنده، قضاء وقدرًا، كما عاقب المكذبين السابقين من الأمم الذين أهلكهم الله، كما في قول الله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، عقوبات قضائية، وكذلك أيضًا العقوبات الشرعية: جلد الزاني أو رجمه، وقطع السارق وقتل القاتل، وقتل الساحر ونحوهم؛ لأنهم جنوا في هذه الدار جنايات يستحقون عليها العقوبة.

وقال - رحمه الله -:

وَلا عُـذْرَ لِلْجَـانِي بِتَقْـدِيرِ خَـالِقٍ ... كَـذَلِكَ فِـي الأُخْـرَى بِـلا مَثْنَوِيَّـةِ

أي: الجاني في الدنيا إذا قال: إن هذا مقدر عليَّ لا عذر له بهذا التقدير، ولا حجة له، قال تعالى: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى: ١٦]، فإذا احتج بالقضاء والقدر نحتج عليه بالقدر في العقوبة، أنت قتلت نفسًا بغير نفس وتقول إنه قدر، وأنت تُقتل، يقتلك أولياء ذلك القتيل قضاءً وقدرًا، أنت زنيت بالقضاء والقدر، فتُرجم أو تُجلد وتُغرب بالقضاء والقدر، وكذلك بقية الجنايات.

ثم قال:

وَتَقْدِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ لِلذَّنْبِ مُوجِبٌ ... لِتَقْـدِيرِ عُقْبَـى الـذَّنْبِ إلا بِتَوْبَـةِ

أي: ولو كان الرب تعالى قدّر ذلك الذنب فإنه قدَّر عاقبة الذنوب، فكما أنه قدر الذنوب التي يفعلها العباد قضاءً وقدرًا، فكذلك قدّر العقاب على الذنب إلا بتوبة، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فيقول: إن الله تعالى لما قدر الذنب كذلك قدر عقاب الذنب عاجلاً وآجلاً، ولا تسقط هذه العقوبة إلا بالتوبة، أي: التوبة الكاملة، التوبة النصوح.

فنقول: أنت قدَّر الله تعالى عليك الذنب، وقدَّر عليك أيضًا أن نعاقبك على ذلك الذنب، أو يعاقبك الله تعالى عقوبة أخروية.

٧٩ وَمَا كَانَ مِنْ جِنْسِ الْمَتَابِ لِرَفْعِهِ عَوَاقِبَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ الْخَبِيثَةِ
٨٠ كَخَيْرٍ بِهِ تُمْحَى الذُّنُوبُ وَدَعْوَةٍ تُجَابُ مِنْ الْجَانِي وَرُبَّ شَفَاعَةِ
٨١ وَقَوْلُ حَلِيفِ الشَّرِّ إِنِّي مُقَدَّرٌ عَلَيَّ كَقَوْلِ الذِّئْبِ هذي طَبِيعَتِي
٨٢ وَتَقْدِيرُهُ لِلْفِعْلِ يَجْلِبُ نِقْمَةً كَتَقْدِيرِهِ الأَشْيَاءَ طُرًّا بِعِلَّةِ
٨٣ فَهَلْ يَنْفَعَنْ عُذْرُ الْمَلُومِ بِأَنَّهُ كَذَا طَبْعُهُ أَمْ هَلْ يُقَالُ لِعَثْرَةِ
٨٤ أَمْ الذَّمُّ وَالتَّعْذِيبُ أَوْكَدُ لِلَّذِي طَبِيعَتُهُ فِعْلُ الشُّرُورِ الشَّنِيعَةِ
٨٥ فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تُجَابَ بِمَا عَسَى يُنَجِّيكَ مِنْ نَارِ الإِلَهِ الْعَظِيمَةِ
٨٦ فَدُونَكَ رَبَّ الْخَلْقِ فَاقْصِدْهُ ضَارِعًا مُرِيدًا لأَنْ يَهْدِيْكَ نَحْوَ الْحَقِيقَةِ
٨٧ وَذَلِّلْ قِيَادَ النَّفْسِ لِلْحَقِّ وَاسْمَعَنْ وَلا تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ
٨٨ وَمَا بَانَ مِنْ حَقٍّ فَلا تَتْرُكَنَّهُ وَلا تَعْصِ مَنْ يَدْعُو لأَقْوَمِ شِرْعَةِ

الشرح:

قوله ـ رحمه الله ـ:

وَمَا كَانَ مِنْ جِنْسِ الْمَتَابِ لِرَفْعِهِ عَوَاقِبَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ الْخَبِيثَةِ

يعني: الذنوب التي عفا الله تعالى عنها رفعت عواقب العباد، فإن التوبة ترفع عاقبة الأفعال الخبيثة التي يفعلها العبد، مثل عمل صالح تُمحى به الذنوب، فهذا مما تُكفر به الذنوب، فإن التوبة الصادقة ترفع عاقبة أفعال العبد وسيئاته.

وكذلك الخيرات التي يعملها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

[هود: ١١٤]، يقول ﷺ: (وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)[١]، فالخير والحسنات والصدقات ونحوها تُمحى بها الذنوب، ولما ذكر النبي ﷺ بعض الأعمال الصالحة، قال: (وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كما يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ)[٢]، فكذلك الخير تُمحى به الذنوب، يعني الصدقات والأعمال الصالحة.

وكذلك الدعوة المجابة من الجاني العاصي إذا دعا ربه، أجابه الله تعالى، ومحا تلك الأفعال الخبيثة، وكذلك الشفاعة إذا شفع له النبي ﷺ، أو الصالحون من العباد فهذه كلها تُمحى به الذنوب. إذًا مما تُمحى به عواقب الأفعال الخبيثة: التوبة تمحوها، والخير كالصدقات والصلوات يمحوها، والدعوة المجابة تمحوها، وشفاعة الشافعين تمحوها.

ثم قال - رحمه الله -:

وَقَوْلُ حَلِيفِ الشَّرِّ إِنِّي مُقَدَّرٌ عَلَيَّ كَقَوْلِ الذِّئْبِ هذي طَبِيعَتِي

أي: إذا قال الذئب الذي يعدو ويفترس البهائم ونحوها: هذه طبيعتي، فكيف تلومونني؟ فهل نعذره ونتركه يفترس الأغنام والبهائم ويقتلها، ويقول: هذه طبيعتي، فأنت يا حليف الشر إذا قلت: هذا مقدر عليَّ، لا نتركك بل نعاقبك ونقتلك، ويعاقبك الله تعالى، كما أننا نقاتل الذئاب ولو أن هذه طبيعتها.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (١٥٣/٥)، والدارمي (٤١٥/٢)، والحاكم (٥٤/١) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وأحمد (٢٤٨/٥) من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وأخرجه ابن ماجه (٢٤١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٧/٥) من حديث أنس ﷺ

يقول - رحمه الله -:

وَتَقْـدِيرُهُ لِلْفِعْـلِ يَجْلِـبُ نِقْمَـةً كَتَقْـدِيرِهِ الأَشْـيَاءَ طُـرًّا بِعِلَّـةِ

أي: تقدير الله تعالى للأفعال التي تجلب نقمة مثل تقديره الأشياء (**طُرًّا بِعِلَّةِ**)، الله تعالى قدَّر الفعل الذي يسبب نقمة، يعني: الذي يسبب قتلاً، أو الذي يسبب ضربًا، أو اعتداء أو إتلاف مال أو نحو ذلك، الله تعالى قدَّر هذا الفعل، وهذا كتقديره جميع الأشياء(**طُرًّا بِعِلَّةِ**).

ثم قال:

فَهَـلْ يَـنْفَعَنْ عُـذْرُ الْمَلُـومِ بِأَنَّـهُ كَـذَا طَبْعُـهُ أَمْ هَـلْ يُقَـالُ لِعَثْـرَةِ؟

أي: هل ينفعه العذر من ذلك الملوم الذي يتلوم، إذا قال: كذا طبعي، وهكذا طبيعتي؟ إذا قال الذئب هذه طبيعتي، وكذلك السباع، وكذلك الجاني القاتل والزاني والشارب ونحوهم، إذا قال: هذا طبعي، فهل تقال عثرته؟ هل ينفعه عذره؟ هل ينفع هذا الملوم عذره إذا قال: هذا طبعي، وهل تُقال عثراته؟ لاشك أن كل من كان ذا عقل يعرف أنه ملوم، وأنه لا تُقال عثرته.

ثم يقول:

أَمْ الـذَّمُّ وَالتَّعْـذِيبُ أَوْكَـدُ لِلَّـذِي طَبِيعَتُـهُ فِعْـلُ الـشُّرُورِ الـشَّنِيعَةِ؟

نعم يستحق الذم، ويستحق التعذيب، وهذا أوكد ولو كانت طبيعته فعل الشرور الشنيعة، فالذي طُبع على فعل الشرور سواءً من البهائم كالذئاب والسباع التي طُبعت على ذلك، أو كذلك الحيات والعقارب، هل نقول: إنها تلسع بإذن الله وقدره، ونتركها، كذلك أيضًا لا نترك الزاني ولا القاتل ونحوه، بل نعاقبه، وكذلك أيضًا يعاقبه الله تعالى.

يقول - رحمه الله -:

فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تُجَابَ بِمَا عَسَى ... يُنجِّيكَ مِنْ نَارِ الإِلَهِ الْعَظِيمَةِ
فَدُونَكَ رَبَّ الْخَلْقِ فَاقْصِدْهُ ضَارِعًا ... مُرِيدًا لأَنْ يَهْدِيْكَ نَحْو الْحَقِيقَةِ

أي: إذا كنت ترجو أن يجيبك الله، وأن يعطيك سؤلك، وأن ينجيك من نار عظيمة، ترجو ذلك في دار الدنيا وفي دار الآخرة، فعليك أن تقصد الله تعالى ضارعًا، مريدًا لأن يهديك نحو الحقيقة، اقصده وتضرع إليه، واطلبه أن يهديك، وأن يسددك، وأن يعينك، وأن يعفو عنك، وأن يغفر لك خطاياك وذنوبك، وبذلك تكون صادقًا، ويعينك الله تعالى، اقصد ربك واترك هذا الاحتجاج الخاطئ.

يقول - رحمه الله -:

وَذَلِّلْ قِيَادَ النَّفْسِ لِلْحَقِّ وَاسْمَعَنْ ... وَلا تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ

قوله:

(وَذَلِّلْ قِيَادَ النَّفْسِ لِلْحَقِّ)

أي: ذلل نفسك أن تنقاد للحق.

قوله:

(وَاسْمَعَنْ)

أي: اسمع ما يُقال واقبله.

قوله:

(وَلا تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ)

أي: لا تعرض عن الخير ولا تهجره، ولا تحتج بالقضاء والقدر وتدعي أنه لا لوم عليك، ذلل نفسك، وقدها للحق، واسمع النصيحة ولا تعرض عن فكرة مستقيمة بل اقبلها وافعلها.

ثم قال:

وَمَـا بَـانَ مِـنْ حَـقٍّ فَـلا تَتْرُكَنَّـهُ ... وَلا تَعْـصِ مَـنْ يَـدْعُو لأَقْـوَمِ شِـرْعَةِ

أي: ما تبين لك من الحق فافعله ولا تتركه؛ لأن الله تعالى أعطاك قدرة، فاتبع الحق وتمسك به، كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾[الزخرف: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢]، يعني: من تمسك به فإن الله تعالى يهديه، كما أخبر الله بقوله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يعني: لا أحد يُكره ولكن الله تعالى هو الذي يهدي، فعليك أن تتمسك بالحق، ولا تتركه، ولا تعصِ مَنْ دعاك للشريعة، فالذي يدعوك لأقوم شريعة اقبل منه، وادعُ له بالخير.

٨٩	وَدَعْ دِيـنَ ذَا الْعَـادَاتِ لا تَتْبَعَنَّـهُ	وَعُـجْ عَـنْ سَـبِيلِ الأُمَّـةِ الْغَـضَبِيَّةِ
٩٠	وَمَـنْ ضَـلَّ عَـنْ حَـقٍّ فَـلا تَقْفُوَنَّـهُ	وَزِنْ مَـا عَلَيْـهِ النَّـاسُ بالمعدليـة
٩١	هُنَالِـكَ تَبْـدُو طَالِعَـاتٌ مِـنَ الْهُـدَى	تُبَـشِّرُ مَـنْ قَـدْ جَـاءَ بِالْحَنِيفِيَّـةِ
٩٢	بِمِلَّـــةِ إِبْـــرَاهِيمَ ذَاكَ إِمَامُنَـــا	وَدِيـنِ رَسُـولِ اللَّـهِ خَيْـرِ الْبَرِيَّـةِ
٩٣	فَـلا يَقْبَـلُ الرَّحْمَـنُ دِينًـا سِوَى الَّذِي	بِـهِ جَـاءَتْ الرُّسْـلُ الْكِـرَامُ السَّجِيَّةِ
٩٤	وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحَاشِرُ الْخَاتَمُ الَّذِي	حَوَى كُلَّ خَيْرٍ فِي عُمُومِ الرِّسَالَةِ
٩٥	وَأَخْبَـرَ عَـنْ رَبِّ الْعِبَـادِ بِـأَنَّ مَـنْ	غَدَا عَنْهُ فِي الأُخْرَى بِأَقْبَحِ خَيْبَةِ
٩٦	فهــذي دِلالاتُ الْعِبَــادِ لِحَــائِرٍ	وَأَمَّـا هُـدَاهُ فَهُـوَ فِعْـلُ الرُّبُوبِيَّـةِ

الشرح:

قوله - رحمه الله -:

وَدَعْ دِيـنَ ذَا الْعَـادَاتِ لا تَتْبَعَنَّـهُ وَعُـجْ عَـنْ سَـبِيلِ الأُمَّـةِ الْغَـضَبِيَّةِ

أي: دين العادات لا تتبعه، بل اتبع دين الله تعالى، وتمسك به، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فاترك العادات، ولا تتبع دين العادات، ولا تتبع ما تهواه النفس:

(وَعُـجْ)

يعني: مل.

(عَـنْ سَـبِيلِ الأُمَّـةِ الْغَـضَبِيَّةِ)

الأمة الغضبية هم اليهود؛ لأنهم يعلمون ولا يعملون، فمعهم علم ولم يعملوا به، فهم المغضوب عليهم.

ثم قال:

وَمَـنْ ضَـلَّ عَـنْ حَـقٍّ فَـلا تَقْفُوَنَّـهُ وَزِنْ مَـــا عَلَيْـــهِ النَّـــاسُ بالمعدليـــة

القفو: الاتباع، إذا رأيت من ضل عن الحق فلا تتبعه في ذلك الضلال، بل اتبع الحق مع من كان، كما قال بعض السلف: «اقبل الحقَ مِن كل مَنْ جاء به ولو كان عدوًا، ورد الباطل على من جاء به ولو كان صديقًا»[1]، فلا تتبع الذين يدعون إلى الباطل، والذين هم قد ضلوا عن الهدى، مثل: النصارى قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، فمن ضل عن الحق فلابد أن يكون في الباطل، ومن ترك الحق وقع في ضده، فلا تقفونه، ولا تتبعه، بل رد عليه باطله، وحاول أن ترده إلى الحق، وتبين له الحق.

قوله:

(وَزِنْ مَـــا عَلَيْـــهِ النَّـــاسُ بالمعدليـــة)

أي: الذي عليه الناس عليك أن تعرضه على الشرع وأن تزنه بالعدل، واقبل ما وافق الشرع، ورد ما خالفه، وبذلك تكون سالمًا من الاعتداء والظلم والجور والضلال، فإن الحق قديم والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، فعليك أن ترده إلى الحق، وإلى الكتاب والسنة، وإلى الأدلة الشرعية دون أن تغتر بكثرة الناس، فقد ذكر الله تعالى أن أكثر الناس هم الضالون، هم المائلون عن الحق، وكثيرًا ما يُذكر في القرآن أن أكثر الناس لا يعقلون ولا يعلمون، قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (٢/٥١٦).

﴿يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، يعني: وإن ادعوا العلم فإنهم مثلما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦ -٧]، ولما ذكر ابن القيم - رحمه الله - قول أهل السنة فيما يتعلق بصفة العلو، قال - رحمه الله -:

هذا وسادس عشرها إجماع أهـ ... ـل العلم أعني حجة الأزمان

من كل صاحب سنة شهدت له ... أهل الحديث وعسكر القرآن

لا عبرة بمخالف لهم ولو ... كانوا عديد الشاء والبعران[1]

أي: من خالف أهل الحق فلا يُلتفت إليه، ولو كان عددهم كثيرًا، فالإنسان يعرف الواجب عليه عن طريق الكتاب والسنة، ويتمسك بالسنة مهما كانت، ويسير على نهجها، ولو كثر المخالفون له، ولو عابه من عابه، ولو ضللوه، ولو خطؤوه وادعوا أنه متأخر ومتخلف وأنه وأنه، فإنه على الحق وعلى سيرة النبي محمد ﷺ، فعليه التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه أئمة أهل السنة.

ثم يقول - رحمه الله -:

هُنَالِكَ تَبْدُو طَالِعَاتٌ مِنْ الْهُدَى ... تُبَشِّرُ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْحَنِيفِيَّةِ

بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ذَاكَ إِمَامُنَا ... وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ

الهدى: هو البيان والدلالة والاهتداء والسير على الحق، والتمسك بالصراط، فمن وزن ما عليه الناس بالعدل والدليل بدا له طالعات الهدى،

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٤٣٩).

وتبين له الهدى من الضلال، وعرف كيف يسير الناس، وعرف الحق، وتبين له ناصعًا ظاهرًا، فإذا بدت تلك الطالعات بشر بالحنيفية.

قوله:

(تُبَشِّرُ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْحَنِيفِيَّةِ)

أي: تبشرك إذا كنت متمسكًا بالحنيفية، أنك متبع ولست بمبتدع، ويظهر ذلك لكل من تأمل وتفكر فيما عليه الناس، فإنها تبدو له هذه الطالعة من الهدى، وتبشره بأنه من أهل الحنيفية التي هي ملة إبراهيم عليه السلام، فالحنيفية حقًا هي ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ والتي أمرنا الله تعالى بأن نتمسك بها، فقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، فملة إبراهيم – عليه السلام – ما كان عليه من الحنيفية التي ذكرها الله تعالى ومدحه بها بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، كما ذكر الله تعالى إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أسوة لمن جاء بعده بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]، فالأسوة: القدوة، فطالعة الهدى تبشر من قد جاء بالحنيفية، أي تبشره بالخير، تبشره بأنه على ملة إبراهيم عليه السلام.

قوله:

(ذَاكَ إِمَامُنَا)

الإمام هو: القدوة للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠ – ١٢١]، فذكر أنه ﴿أُمَّةً﴾، يعني: قدوة في الخير، وأنه ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، القانت: الخاشع

والمتذلل لربه، وأنه ﴿حَنِيفًا﴾، والحنيف هو: المقبل إلى الله المائل عما سواه، أو الحنيف: المائل عن الباطل المقبل على الحق، أو الحنيف هو: المائل عن الشرك قصدًا إلى التوحيد، كما فسر بذلك مشايخنا الحنيفية في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فمن جاء بالحنيفية التي هي ملة إبراهيم - عليه السلام - فله البشرى، فإبراهيم - عليه السلام - هو إمام ذريته الذين ساروا على نهجه، وإمام من جاء بعده.

قوله:

(وَدِيـنِ رَسُـولِ اللَّـهِ خَيْـرِ الْبَرِيَّـةِ)

أي: وكذلك هذا الهدى هو دين رسول الله ﷺ، وهو خير البرية، أي: خير الخلق، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قيل له: يا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: **(ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ)**(١)، يعني: الخليل، البرية هم: الخلق الذين برأهم الله، فنقول: إن كل من جاء بالهدى فإنه على ملة إبراهيم عليه السلام، وإنه على دين النبي ﷺ.

ثم يقول - رحمه الله -:

فَلا يَقْبَلُ الرَّحْمَنُ دِينًا سِوَى الَّذِي ... بِـهِ جَـاءَتْ الرُّسْـلُ الْكِـرَامُ السَّجِيَّةِ

أي: الرحمن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقبل دينًا إلا دين الرسل ألا وهو التوحيد، الذي هو: إخلاص الدين لله تعالى، فإنه دين الله الذي لا يقبل غيره، وربنا سبحانه وتعالى جعل ديننا الإسلام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، يعني: الاستسلام لله وحده بالتوحيد، وإخلاص

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الدين له، وأخبر بأنه لا يقبل غيره، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، أيًا كانت تلك الأديان المبتدعة المخترعة التي خالفت ما جاءت به الرسل الكرام، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨]، أي: من استبدل الكفر بدل الإيمان فقد ضل سواء السبيل، الرحمن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ دينه الإسلام، والرسل جاؤوا بهذا الدين الذي أرسله الله تعالى وأمر به، وكلهم جاؤوا به، فديننا هو ما جاء في كتاب ربنا سبحانه، وما بلغه نبينا ﷺ.

يقول الحفظي[1] – رحمه الله –:

والله ليس يقبل العباده إلا على الأمر الذي أراده

فلا يقبل الله الدين إلا الدين الذي جاءت به الرسل الكرام، رسل الله من أولهم إلى آخرهم، جاؤوا بالحنيفية، وبالإخلاص، وبالدين الخالص لله سبحانه وتعالى، فلا يقبل من العباد إلا هذا التوحيد، الذي اتفقت عليه دعوة الرسل، وهو إخلاص العبادة لله.

قوله:

(الرسل الْكِرَامُ السَّجِيَّةِ)

أي: كرام السجايا، أي: سجاياهم وطبائعهم كريمة، والسجية هي: الخُلق الذي فطر الله تعالى الإنسان على استحسانه، فالرسل كرام السجايا، فينبغي أن يتمسك المسلم بكل ما جاءت به الرسل؛ لأن الله لا يقبل إلا هذا الدين الذي

---

(١) هو الشيخ محمد بن أحمد الحفظي الحجازي اليمني، وهذا البيت من أرجوزة له نظمها في بيان دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، ذكر فيها مآثر آل سعود لما استجابوا لدعوته وآووه ونصروه، وقال في مطلعها:

الحمدُ حقًا مستحقًا أبدا لله رب العالمين سرمدا

اتفقت عليه دعوة الرسل، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، يعني: كل منهم جاؤوا يبيّنون لأقوامهم ما يعرفونه، وأخبر تعالى بأن الرسل كلهم دعوا إلى التوحيد، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، أي: كل الرسل أوحي إليهم أن يعبدوا الله، وأن يخلصوا له العبادة وحده، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذا هو الذي جاءت به الرسل الكرام.

ثم قال:

وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحَاشِرُ الْخَاتَمُ الَّذِي حَوَى كُلَّ خَيْرٍ فِي عُمُومِ الرِّسَالَةِ

يريد الشيخ - رحمه الله - بذلك نبينا محمد ﷺ، الذي هو خاتم الأنبياء، والذي رسالته حوت كل خير، والذي رسالته عامة لجميع البشر، ولما ذكر ﷺ خصائصه التي خُص بها، يقول: (**وَبُعِثْتُ إلى الناس كَافَّةً**)[1]، أي: كان الأنبياء كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وأما نبينا ﷺ فإن رسالته عامة، وهذا معنى قوله:

(فِي عُمُومِ الرِّسَالَةِ)

قوله:

(الْحَاشِرُ الْخَاتَمُ)

هما من أسماء النبي ﷺ، ففي الحديث يقول ﷺ: (**لي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أنا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وأنا الْمَاحِي الذي يَمْحُو الله بِي الْكُفْرَ، وأنا الْحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر ﷺ.

الناس على قَدَمِي، وأنا الْعَاقِبُ)[١]، وَالْعَاقِبُ: الذي ليس بَعْدَهُ نَبِيٌّ، والذي هو آخر الرسل وخاتمهم، والذي جاء بعد الأنبياء، وذُكر أنه قال: **(وأنا الْمُقَفِّي)**[٢] والمقفي: الذي جاء بعد الأنبياء، وقال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فهو الحاشر وهو الخاتم، فدين هذا النبي ﷺ الذي جاء به قد حوى كل خير في عموم الرسالة، وكانت رسالته عامة؛ فلأجل ذلك كان دينه الذي جاء به صالحًا لكل زمان ومكان، صالحًا للعرب وللعجم، وللقريب وللبعيد؛ لأن الله تعالى جعل رسالته إلى الناس عامة؛ لأنه آخر الرسل، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، أي: رسالته إلى جميع الناس، إلى جميع الخلق كلهم، فهو مرسل إليهم فعليهم أن يتبعوه ويطيعوه، فكل من بلغته الرسالة فإنه يلزمه أن يتبعها، وقد ذكر ﷺ خصائصه فقال: **(أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لي الْمَغَانِمُ ولم تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى الناس عَامَّةً)**[٣]، فأخبر ﷺ بأن رسالته عامة للجن والإنس، وألف في ذلك العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته التي سماها (إيضاح الدلالة في عموم الرسالة).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٦٧) من حديث حذيفة ﷺ، والطبراني في الكبير (٨٧) من حديث عوف بن مالك ﷺ.

(٣) تقدم قريبًا.

ثم يقول - رحمه الله - :

وَأَخْبَرَ عَنْ رَبِّ الْعِبَادِ بِأَنَّ مَنْ غَدَا عَنْهُ فِي الأُخْرَى بِأَقْبَحِ خَيْبَةِ

فهذي دِلالاتُ الْعِبَادِ لِحَائِرِ وَأَمَّا هُدَاهُ فَهُوَ فِعْلُ الرُّبُوبِيَّةِ

قوله :

(وَأَخْبَرَ عَنْ رَبِّ الْعِبَادِ)

أي : أن النبي ﷺ هو الذي أخبر عن رب العباد.

قوله :

.... (بِأَنَّ مَنْ غَدَا عَنْهُ فِي الأُخْرَى بِأَقْبَحِ خَيْبَةِ)

أي : من ترك هذه الرسالة ومن ترك هذا الدين ، ومن رغب عنه ، ومن ضل عنه فإنه خاسر ، وهو يشير إلى قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥]، فأخبر الله تعالى وأخبر النبي ﷺ بأن من غدا عنه أي من تركه وابتعد عنه ، واستبدل به غيره من الأديان الباطلة فإنه في الآخرة له أقبح خيبة ، أي خسران مبين.

قوله :

(دِلالاتُ الْعِبَادِ لِحَائِرِ)

أي : أي هذه دلالات العباد لمن كان حائرًا عن الهدى ، وضالاً وحيرانًا ، وكأنه يشير إلى ما يقوله هذا الناظم الذي يقول :

(تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بِأَوْضَحِ حُجَّةِ)

فإن على الإنسان أن يتمسك بهذا الدين حتى ينجو من الضلال ، وحتى يستفيد في حياته.



فالله - سبحانه وتعالى - هو الذي يهدي من يشاء ؛ ولهذا قال :

(وَأَمَّـا هُـدَاهُ فَهُـوَ فِعْـلُ الرُّبُوبِيَّـةِ)

فالهدى من الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فمن هداه فإنه قد أنعم عليه وتفضل عليه، ومن أضله فإن ذلك لحكمة، حيث إنه اتبع ما تهواه نفسه، ووقع في الضلالة والعياذ بالله، (لِحَائِرِ) أي: للحيران الذي لا يدري أين يتوجه كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ [الأنعام: ٧١]، أي: أضلته شياطين الإنس وشياطين الجن، وأصبح حيران لا يدري هل يتقدم أو يتأخر، فهكذا من تحير في أمره ولم يعرف الهدى، ولا الضلال، فإنه والحال هذه يعتبر قد ضل وتحير، فعليه أن يرجع إلى الهدى ويتمسك به، والهداية فعل الرب سبحانه وتعالى.

٩٧ وَفَقْدُ الْهُدَى عِنْدَ الْوَرَى لا يُفِيدُ مَنْ ... غَدَا عَنْهُ بَلْ يَجْرِي بِلا وَجْهِ حُجَّةِ

٩٨ وَحُجَّةُ مُحْتَجٍّ بِتَقْدِيرِ رَبِّهِ ... تَزِيدُ عَذَابًا كَاحْتِجَاجِ مَرِيضَةِ

٩٩ وَأَمَّا رِضَانَا بِالْقَضَاءِ فَإِنَّمَا ... أُمِرْنَا بِأَنْ نَرْضَى بِمِثْلِ الْمُصِيبَةِ

١٠٠ كَسَقَمٍ وَفَقْرٍ ثُمَّ ذُلٍّ وَغُرْبَةِ ... وَمَا كَانَ مِنْ مُؤْذٍ بِدُونِ جَرِيمَةِ

١٠١ فَأَمَّا الأَفَاعِيلُ الَّتِي كُرِهَتْ لَنَا ... فَلا تُرْتَضَى مَسْخُوطَةً لِمَشِيئَةِ[1]

١٠٢ وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ لا رِضَا ... بِفِعْلِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ

١٠٣ وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِقَضَائِهِ ... وَلا نَرْتَضِي الْمَقْضِيَّ أَقْبَحَ خَصْلَةِ

١٠٤ وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِإِضَافَةٍ ... إِلَيْهِ وَمَا فِينَا فَنُلْقِي بِسَخْطَةِ

١٠٥ كَمَا أَنَّهَا لِلرَّبِّ خَلْقٌ وَأَنَّهَا ... لِمَخْلُوقِهِ لَيْسَتْ كَفِعْلِ الْغَرِيزَةِ

١٠٦ فَنَرْضَى مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ خَلْقُهُ ... وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْهِ اكْتِسَابِ الْخَطِيئَةِ

الشرح:

قوله:

وَفَقْدُ الْهُدَى عِنْدَ الْوَرَى لا يُفِيدُ مَنْ ... غَدَا عَنْهُ بَلْ يَجْرِي بِلا وَجْهِ حُجَّةِ

(عِنْدَ الْوَرَى)

الذين هم الخلق، فمن فقد الهدى عند الخلق، فإنه لا يستفيد غدًا في الآخرة.

---

(١) وفي نسخة:

(فَأَمَّا الأَفَاعِيلُ الَّتِي كُرِهَتْ لَنَا ... فلا نص يأتي في رضاها بطاعة)

(بَــــــــلْ يَجْــــــــرِي)

جزاؤه الذي يستحقه في الآخرة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

(بِــــلا وَجْـــــهِ حُجَّــــةٍ)

أي: ليس لديه حجة يحتج بها، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦].

لاشك أن الذين فقدوا الهدى وليس عندهم شيء من الاهتداء لا يفيدون غيرهم، ولا يستفيد منهم أحد، بل يُجزى بلا وجه حجة، فهم ليس عندهم دليل ولا حجة.

يقول - رحمه الله -:

وَحُجَّـــةُ مُحْـــتَجٍّ بِتَقْـــدِيرِ رَبِّـــهِ   تَزِيـــدُ عَـــذَابًا كَاحْتِجَـــاجِ مَرِيـــضَةِ

أي: الذين يحتجون بتقدير الله - عز وجل - بأن هذا قدَّره عليهم، وأنه أوقعهم في هذا الألم والعذاب ونحو ذلك، نقول لهم: كذبتم، الله - سبحانه وتعالى - أقدركم وأعطاكم قوة ومكّن لكم، وبيَّن لكم الحق، فقامت عليكم الحجة، فليس لكم عذر في أن تحتجوا بالقضاء والقدر، بل الله - سبحانه وتعالى - مكّن لكم وقواكم وأعطاكم فلا تحتجوا بالقدر، فإنكم لا تقبلون ذلك حجة عليكم.

وقوله:

(تَزِيـــــــدُ عَـــــــــذَابًا)

أي: هذه الحجة زيادة في عذابه؛ لأن ربه سبحانه مكنه، وأعطاه قدرة يزاول بها الأعمال، فالذي يحتج بأن هذا قدر، وأنه مكتوب عليه، وأنه ليس

له حيلة نقول: حجتك هذه تُعذب عليها، بدل ما ترجو أنك لا تُعذب، نقول: بلى، إنك تُعذب عن هذه الحجة فهذه الحجة تزيدك عذابًا، ومثال ذلك قال:

(كَاحْتِجَـــاجِ مَرِيـــضَةِ)

المرض وإن كان بقدر الله لكن قد يكون له أسباب، وقد أمر الله تعالى وأمر نبيه بالعلاج، فهل احتجاج مريضة يخفف عنها؟ لاشك أن هذا لا يكون، فهكذا احتجاج المحتج بالقدر.

ثم قال - رحمه الله -:

وَأَمَّـا رِضَـانَا بِالْقَـضَاءِ فَإِنَّمَـا أُمِرْنَـا بِـأَنْ نَرْضَـى بِمِثْـلِ الْمُـصِيبَةِ

أي: العباد إذا أصابتهم مصيبة فإنهم يرضون عن الله تعالى الذي قدَّر هذه المصيبة، فإننا نرضى بالمصيبة التي تصيبنا ونسلم، قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[التغابن: ١١]، قال علقمة - رحمه الله -: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم)[١]، فأُمرنا بأن نرضى بالمصائب التي تصيب العباد، قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦]، هؤلاء هم الذين يرضون بالمصيبة، ويعلمون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، ويعلمون أن لهم في هذه المصيبة أجر فيسترجعون ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، أي: مردنا إلى الله تعالى ومرجعنا إليه ونحن ملكه، فنرضى بما أصابنا في هذه الدنيا من المصائب التي يسلطها الله تعالى على العباد؛ ليظهر من يصبر ومن يجزع.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢٣/٢٨)، والبيهقي (٦٦/٤).

ثم ذكر أمثلة للمصيبة، فقال:

كَسَقمٍ وَفَقْرٍ ثُمَّ ذُلٍّ وَغُرْبَةٍ وَمَا كَانَ مِنْ مُؤْذٍ بِدُونِ جَرِيمَةِ

قوله:

(كَسَقمٍ)

أي: هذه الأمراض إذا جاءت للعباد فإنهم يرضون بهذه المصائب، ولا يعتبون على الله تعالى، ولا ينكرون تصرفه بهم، فيقولون: رضينا بقضاء الله، الله تعالى قدَّر علينا هذه الأمراض، وقدَّر علينا هذا الفقر، وهذه الذلة، وهذه الغربة، وكذلك سلط علينا هؤلاء الذين آذونا بدون جريمة حصلت منا، ومع ذلك فإنهم يسعون في تخفيف ذلك، فيسعون في علاج الأسقام؛ لأننا أُمرنا بأن نعالج الأمراض، قال النبي ﷺ: **(ما أَنْزَلَ الله دَاءً إلا أَنْزَلَ له شِفَاءً)**[(١)]، وقال ﷺ: **(تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إلا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً)**[(٢)]، وقال: **(إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا ولا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ)**[(٣)]، فأمرنا بأن نتداوى، وأمر أيضًا بالرقية، وقال: **(لا بَأْسَ بِالرُّقَى ما لم يَكُنْ فيه شِرْكٌ)**[(٤)]، وقال: **(مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ)**[(٥)]، فالأسقام التي تصيب الإنسان يعلم أنها من الله، ويرضى بقضاء الله، ومع

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٥٣)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وابن حبان (٤٢٦/١٣)، والحاكم (١٢١/١)، من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤)، والبيهقي (٥/١٠) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه

(٥) أخرجه مسلم (٢١٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

ذلك يُباح له أن يتعالج، وإن كان ترك العلاج مع قوة التوكل أفضل؛ لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قوله:

(وَفَقْـــــرٍ)

أي: من المصائب الفقر، فإن الله تعالى قسم العباد وجعلهم فقراء وأغنياء، فالذي يُبتلى بالفقر - الذي هو قلة ذات اليد - يعلم إنه من الله، ومع هذا فلا يستسلم لهذا الفقر بل عليه أن يتكسب، وأن يفعل الأسباب، ويطلب الرزق بتوفيق الله تعالى؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، فأمر تعالى بأن نسير في مناكب الأرض، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فالله - سبحانه وتعالى - قد تكفل بالرزق، فالعبد إذا كان جنينًا في بطن أمه أوصل الله إليه رزقه، وغذاءه الذي يتغذى به وينمو بدنه ويكبر إلى أن يتكامل خلقه، ثم إذا خرج إلى الدنيا فإن الله تعالى سخر له الوالدين، وجعل في قلوبهما رأفة ورحمة ومحبة وحنانًا وعطفًا على أولادهما، ما داموا أطفالاً في سن الرضاعة وفي سن الحضانة، وفي سن الصغر، وهكذا إلى أن يكبر أحدهم، ثم بعد ذلك يؤمر بأن يتكسب إذا تقوي وقدر، ويعلم أن الله هو الذي ابتلاه، وأنه كلفه وأمره بأن يكتسب ويلتمس، فإن الله تعالى هو الذي يعطي من يشاء، ويفقر من يشاء، ويغني من يشاء، ولكن لذلك أسباب، فافعلوا هذه الأسباب.

قوله:

(ثـــــمَّ ذُلٌّ)

أي: وكذلك إذا ابتلي بذل، فإنه لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه، بل عليه أن يفعل ما يقدر عليه من أسباب عز النفس، ورفعها، وعدم إذلالها، كما كانت حالة العلماء وأهل الشرف وأهل المهابة، فقد كانوا يأنفون عن أن يكونوا أذلاء، وأن يُتسلط عليهم الأعداء، فيذلوهم ويهينوهم، فلا نرضى لأنفسنا بالهوان والذل، بل نحرص على أن نعز أنفسنا ونعرف لها مكانتها، ونعرف لها فضلها، فإذا رزق الله تعالى العبد علمًا فلا ينبغي له أن يرضى بالذل والهوان، بل عليه أن يرفع نفسه عن مواقع الذل والإهانة، وكذلك أيضًا إذا رزقه شرفًا ورتبة رفيعة، فلا يذل نفسه للناس، ويظهر أنه ذليل مهين، ولكن مع ذلك لا يتكبر على الله، ولا يتكبر على عباد الله، بل يتواضع لهم ولو كان شريفًا، ولو كان رفيع القدر، ولو كان عالمًا كبيرًا، ولو كان أميرًا أو وزيرًا، فإنهم كلهم عبيد لله تعالى، ولكن متى رزق الله العبد رفعة ومناعة وفضيلة، فإنه يفرح بذلك، ويلتمس أسباب العزة والرفعة من الله عز وجل.

قوله:

(وَغُرْبَـــــةٍ)

أي: وكذلك إذا ابتلي بغربة، الغربة هي: البعد عن الوطن، والغريب هو: البعيد عن وطنه، ولكن كل الناس غرباء في هذه الدنيا، قال ﷺ لابن عمر -رضي الله عنهما-: **(كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ)**[1]، أمره بأن يكون كأنه غريب في بلاد ليس من أهلها، فالإنسان الذي في غير بلاده يكون غريبًا بينهم، لا أحد يعرفه، ولا أحد يضيفه، ولا يعرف مكانته، فهو لا يبقى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

إلا وقتًا قصيرًا، ثم بعد ذلك يذهب إلى وطنه الذي هو معروف فيه، وعلى كل حال إذا ابتلي بأن غرب ونزح عن بلده لأمر لا يستطيع رده، فعليه ـ والحال هذه ـ أن يصبر ويحتسب، وأن يعلم أن هذا أمر الله وقدره، وأنه لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

قوله:

(وَمَا كَانَ مِنْ مُؤْذٍ بِدُونِ جَرِيمَةِ)

أي: وكذلك جميع المؤذيات التي تؤذي العبد بدون أن يكون له فعل فيه، لاشك أنه وإن كان بقضاء الله لكن الإنسان عليه أن يدفع ذلك الأذى.

فكل هذه المصائب التي تصيب الإنسان فإن عليه أن يرضى بالأسقام والفقر والذل والغربة ونحو ذلك، ويسعى في تخفيفها، ويسعى في الأشياء التي أُمر بأن يقدر عليها، ومن ذلك إذا ابتلي بالمعاصي ووقع فيها فلا يقل: هذا قدر محتوم عليَّ، ولا حيلة لي في دفعه، بل عليه أن يفعل الأسباب، عليه أن يتوب إلى الله تعالى، ويصدق التوبة، ويعمل الأعمال الصالحة، وبذلك يكون دافعًا للقدر بالقدر.

ثم قال:

فَأَمَّا الأَفَاعِيلُ الَّتِي كُرِهَتْ لَنَا فَلا تُرْتَضَى مَسْخُوطَةً لِمَشِيئَةِ

أي: الأفاعيل المكروهة لا تُرتضى، بل هي مسخوطة ولو كانت بمشيئة الله تعالى وقدره، فالعبد لا يرضى بالإهانة، ولا يرضى بالإذلال، ولا يرضى بتسلط الأعداء عليه، ولا يرضى بما يحصل له من سجن، أو مصيبة، أو نحو ذلك، من الأشياء التي تكرهها النفس، والتي يكون العبد فيها مكرهًا، أو

مصابًا، بأي مصيبة، فهذه لا تُرضى، بل إنها مسخوطة، ولو كانت بمشيئة الله تعالى، والنفس لاشك أنها تحب الخير وتكره الشر، فالإنسان يحب العافية ويكره الأمراض، ولا يرتضيها، ويحب الغنى، ويكره الفقر، ولا يرتضيه، ويحب الإعزاز، ويكره الإذلال، ولا يرتضيه، وكذلك يحب العافية، ويكره الأمراض، والإساءة ولا يرتضيها، فالأفعال التي كُرهت لنا لا نرتضيها؛ لأنها مسخوطة، ونعلم أنها بقضاء الله وقدره، ولكن نسعى لدفع الآلام بما يخففها، وكذلك أيضًا ندفع الصائل الذي يصول علينا من إنسان أو بهيمة، ولا نتركه يتسلط علينا، هذه كلها من الأفعال التي كُرهت لنا، ولو أنها مقدرة علينا.

ثم قال:

وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ لا رِضًا بِفِعْلِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ

أي: الأفعال التي كُرهت ولا تُرتضى بل هي مسخوطة، من العلماء من يقول: لا نرضى بفعل المعاصي، بل نكرهها، فإذا قدر أن أحدنا وقع في ذنب أو في معصية، فلا يقول: استسلمت لها؛ لأنها بقضاء الله، أنا راضٍ بهذه المعصية، أنا راضٍ بوقوعي في هذا الذنب؛ لأنه بقضاء الله، لا يقول: رضيت بأني عاصٍ، أو بأني زانٍ، أو بأني شارب مسكر، أو بأني قاتل النفس المعصومة، أو بأني تارك للصلوات، أو مانع للزكوات، أو مخالف لأوامر الله تعالى، أو آكل للحرام، لا يرضى بذلك، بل نعلم إنه وإن كان بقضاء الله فإنه مضاف إلينا وإلى أفعالنا؛ ولهذا لما وقع آدم وحواء في الذنب اعترفا بذلك: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فاعترف آدم أنه ظلم نفسه، أي وقع في هذا الذنب، وإذا كان كذلك فإنه ليس بمعذور؛ لأن

الذنب يُضاف إليه فلا عذر له، ولا يحتج بالقدر، بل يقول: أنا ظلمت نفسي، وكذلك علم النبي ﷺ أبا بكر ﷺ دعاءً يدعو به في صلاته فيقول: **(اللهم إني ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلا أنت، فَاغْفِرْ لي مَغْفِرَةً من عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أنت الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)**[1]، فأمره بأن يعترف بأنه ظلم نفسه ظلمًا كثيرًا، يعني بتقصيره في حق الله تعالى، فأضاف الظلم إلى نفسه، ولم يقل: إن الله قدَّر عليَّ، أو أنه ظلمني، فالمعاصي والذنوب لا نرضى بها إذا وقعت منا، بل نأسف ونندم، ونحرص على التوبة، ونرجع إلى الله، ونعرف ما وقعنا فيه، ونتوب إلى الله توبة صادقة، وننيب إليه، ونقول: هذا تسلط أنفسنا الأمارة بالسوء، فتب علينا يا ربنا، وامح عنا هذه الذنوب الكبيرة والصغيرة، وبذلك يقبل الله تعالى توبة التائبين، ويمحو عنهم ذنوبهم ويغفر لهم، ويفرح بتوبتهم، فتُسند التوبة إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فالتوبة من المعاصي في إمكان العبد، إذا وقع في معصية أن يتوب إلى الله تعالى. وهذا قول أهل العلم.

ثم يقول:

وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِقَضَائِهِ وَلا نَرْتَضِي الْمَقْضِيَّ أَقْبَحَ خَصْلَةِ

هذه مقالة فيها شيء من التسليم للقضاء، نقول: قدَّر الله علينا هذا القضاء، هذا الذنب، فنرضى؛ لأنها قضاء الله، ولكن المقضي الذي هو الأعمال السيئة - أي: الوقوع في الذنب والوقوع في السيئات - هذا هو الذي لا نرتضيه، ففرق

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

بين القضاء والمقضي، فالمقضي هو: الوقوع في الذنوب والخصال القبيحة، هذا لا نرتضيه، وأما قضاء الله الذي هو: تقديره علينا ما وقعنا فيه، فإننا نسلم لله تعالى، ونعلم أنه من الله، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الأنعام: ١٤٩]، ولكنه مع ذلك أسند إلينا مشيئة وقدرة، وعلقها بمشيئة الله تعالى، فللعباد قدرة على أفعالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير: ٢٨]، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فجعل للعباد مشيئة، وجعل تلك المشيئة خاضعة لمشيئة الله، ومسبوقة بمشيئة الرب سبحانه وتعالى، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فنرتضي بالقضاء الذي هو فعل الله تعالى، ولا نرتضي بالمقضي الذي يُضاف إلى العبد ويكون فعله، بل نكره تلك الخصال القبيحة التي صدرت منا، ونعلم أنها منا، ونتوب إلى ربنا، ونقلع عن الخطايا، ونترك السيئات، حتى يرضى الله تعالى عنا.

ثم قال:

وَقَالَ فَرِيقٌ نَرْتَضِي بِإِضَافَةٍ إِلَيْهِ وَمَا فِينَا فَنُلْقِي بِسَخْطَةِ

هذه أيضًا بمعنى المقالة التي قبلها، أي: نرضى ما أضيف إلى الله تعالى من الخلق والتقدير، فهو الذي قدَّر الكفر والإيمان، وهو الذي قدَّر الطاعة والمعصية، وهو الذي قدَّر الهداية والإضلال، فنرضى بقضاء الله، كل شيء أضيف إلى الله، نقول: هداية الله، وتوفيق الله، وخذلان الله، كل شيء أضيف إلى الله تعالى فإننا نرضى به، وأما أعمالنا أي: ما يُضاف إلينا، فإنها مسخوطة ولا نرضاها، أي: أفعالنا التي صدرت منا، والتي تُضاف إلينا، فإننا نلقاها

بسخطة، فما يُضاف إلى الله تعالى، فإنه مرضي عند الله تعالى ومن الله، وأما ما يُنسب إلى العبد، فإنه مسخوط ومكروه.

فهذه هي الأقوال في الأفعال المكروهة:

الأول: قولهم: لا نرضى بفعل المعاصي بل نكرهها.

الثاني: قولهم: نرتضي بالقضاء دون المقضي.

الثالث: قولهم: نرتضي بإضافتها إلى الله ونسخط ما فينا.

ثم قال:

كَمَا أَنَّهَا لِلرَّبِّ خَلْقٌ وَأَنَّهَا ... لِمَخْلُوقِهِ لَيْسَتْ كَفِعْلِ الْغَرِيزَةِ

المعاصي والذنوب خلق لله، وليست مثل فعل الغرائز، والغريزة هي: الطبيعة التي غُرزت في نفس الإنسان، مثل: نوم الإنسان ويقظته، وحركته، وصعوده ونزوله، وإقباله وإدباره، ونحو ذلك أفعال غريزية، فليست المعاصي مثل الغرائز، ولكنها مخلوقة لله تعالى، هو الذي خلقها، وهو الذي قدرها على العبد، ولكن إذا أضيفت إلينا فإنها مسخوطة، يعني: سيئاتنا، فنقول - كما في خطبة الحاجة - أنه ﷺ قال: **(من يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له، وَمَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له)**[1]، فهو سبحانه الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ولكن نعرف أنه مكّن العبد، وجعل له قدرة، يستطيع بها أن يزاول الأعمال العادية، يعني: الدنيوية كالحرفة

---

(١) هذا جزء من خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي ﷺ بين يدي حاجته، أخرجها مسلم مختصرة من حديث جابر رضي الله عنه (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند أبي داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (١/٣٩٢، ٣٩٣)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ شرح لها في جزء لطيف.



والتجارة وما أشبه ذلك، وكذلك الأعمال التي هي المعاصي ونحوها، كأكل الربا والغصب والسرقة، وما أشبه ذلك، هي مخلوقة لله تعالى، هو الذي خلقها وليست كالغرائز ومع ذلك يقول:

فَنَرْضَى مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ خَلْقُهُ وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْهِ اكْتِسَابِ الْخَطِيئَةِ

أي: نرضى بأن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه خلق حركة العباد التي يزاولون بها هذه الأعمال، وأما اكتساب العبد لهذه الخطيئة فإننا نسخطه، نسخط على من كفر، وعلى من سرق، ومن قتل ظلمًا، ومن تعاطى حرامًا، نسخط على من اكتسب الخطايا، مع أننا نعلم أنه خلق الله تعالى وتدبيره، ولكن على العباد أن يرضوا بقضاء الله الذي هو خلقه، ويسخطوا المعاصي التي قدرها، والتي خلقها في العباد.

١٠٧	وَمَعْصِيَةُ الْعَبْدِ الْمُكَلَّفِ تَرْكُهُ	لِمَا أَمَرَ الْمَوْلَى وَإِنْ بِمَشِيئَةِ
١٠٨	فَإِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ حَقٌّ مَقَالُهُ	بِأَنَّ الْعِبَادَ فِي جَحِيمٍ وَجَنَّةِ
١٠٩	كَمَا أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ هَكَذَا	بَلْ الْبُهْمُ فِي الآلامِ أَيْضًا وَنِعْمَةِ
١١٠	وَحِكْمَتُهُ الْعُلْيَا اقْتَضَتْ مَا اقْتَضَتْ مِنْ الْـ	فُرُوقِ بِعِلْمٍ ثُمَّ أَيْدٍ وَرَحْمَةِ
١١١	يَسُوقُ أُولِي التَّعْذِيبِ بِالسَّبَبِ الَّذِي	يُقَدِّرُهُ نَحْوَ الْعَذَابِ بِعِزَّةِ
١١٢	وَيَهْدِي أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ نَعِيمِهِمْ	بِأَعْمَالِ صِدْقٍ فِي رَجَاءٍ وَخَشْيَةِ
١١٣	وَأَمْرُ إِلَهِ الْخَلْقِ بَيَّنَ مَا بِهِ	يَسُوقُ أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ السَّعَادَةِ
١١٤	فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ أَثَّرَتْ	أَوَامِرُهُ فِيهِ بِتَيْسِيرِ صَنْعَةِ
١١٥	وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ لَمْ يَنَلْ	بِأَمْرٍ وَلا نَهْيٍ بِتَقْدِيرِ شِقْوَةِ
١١٦	وَلا مَخْرَجٌ لِلْعَبْدِ عَمَّا بِهِ قَضَى	وَلَكِنَّهُ مُخْتَارُ حُسْنٍ وَسَوْأَةِ
١١٧	فَلَيْسَ بِمَجْبُورٍ عَدِيمِ الإِرَادَةِ	وَلَكِنَّهُ شَاءٍ بِخَلْقِ الإِرَادَةِ
١١٨	وَمِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ خَلْقُ مَشِيئَةٍ	بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الْهُدَى بِالضَّلالَةِ

الشرح:

قال - رحمه الله -:

(وَمَعْصِيَةُ الْعَبْدِ الْمُكَلَّفِ)

أي: إذا عصى العبد المكلف الذي هو: عاقل، بالغ، فاهم، قادر، كما إذا ترك الصلاة، أو منع الزكاة، أو أفطر في رمضان بدون عذر وهو مكلف، أو ترك الجهاد إذا تعين عليه، أو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرته، فإذا

ترك هذه الطاعات التي كلفه الله بها، وفعل المعاصي، نقول: إن هذه معصية.

قوله:

(تَرْكُـهُ لِمَـا أَمْـرَ الْمَـوْلَى وَإِنْ بِمَـشِيئَةِ)

أي: ترك الفرائض وفعل المحظورات، ولو كان ذلك بمشيئة الله وبقضائه وقدره، فإن ذلك وإن كان مرضيًا لنا، فإنه مسخوط من حيث إنه ذنب، ومن حيث إنه معصية، وأنه يُعد عاصيًا، ولو كان ذلك بمشيئة الله الكونية القدرية، فإن حجة الله قائمة على العباد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فقد مكّن العباد، وأعطاهم قوة وقدرة، يزاولون بها الأعمال، فإذا تركوا ما أمر الله به، أو فعلوا ما نهى الله عنه، فإنهم يعتبرون عصاة، فالعبد العاصي هو: الذي يترك ما أمر به المولى، أو يفعل ما نهى عنه المولى، فلا يحتج بالقدر ولو كان ذلك بمشيئة الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ولكن يضل من يشاء بحكمة.

وقوله - رحمه الله -:

فَـإِنَّ إِلَـهَ الْخَلْـقِ حَـقٌّ مَقَالُـهُ ... بِـأَنَّ الْعِبَـادَ فِـي جَحِـيمٍ وَجَنَّـةِ

(إِلَـــــهَ الْخَلْـــــقِ)

الذي هو: الله تعالى، قد أخبر سبحانه بأن العباد في الآخرة في جحيم أو جنة، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، فخلق من عباده خلقًا وجعلهم للجنة، وآخرين جعلهم للنار، ففي الحديث قال ﷺ: **(إن اللَّهَ عز وجل خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ من ظَهْرِهِ، وقال: هَؤُلاَءِ في الْجَنَّةِ وَلاَ أبالي، وَهَؤُلاَءِ في النَّارِ وَلاَ أبالي)**، قال: فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَى مَاذَا

نَعْمَلُ؟ قال: (**على مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**)[١]، وفي الحديث الآخر: قال رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُعْرَفُ أَهْلُ الْجَنَّةِ من أَهْلِ النَّارِ؟ قال: (**نعم**)، قال: فَلِمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قال: (**كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ له، أو لِمَا ييسر له**)[٢]، وفي الآخر قال ﷺ: (**ما مِنْكُمْ من أَحَدٍ إلا وقد كُتِبَ مَقْعَدُهُ من النَّارِ وَمَقْعَدُهُ من الْجَنَّةِ**)، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا نَتَّكِلُ على كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قال: (**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، أَمَّا من كان من أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا من كان من أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**)، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠][٣]، فالمقادير محددة معروفة، والإنسان لا يتجاوز ما حُد وما قُدر له، ولكن مع ذلك عنده قدرة، وعنده استطاعة وتمكن أن يعمل الصالحات، وأن يترك المحرمات، فإذا خالف وعاند صدق عليه أنه من أهل المعاصي.

ثم يقول - رحمه الله -:

كَمَا أَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ هَكَذَا ... بَلْ الْبُهْمُ فِي الآلامِ أَيْضًا وَنِعْمَةِ

أي: أنهم في هذه الدار الدنيا كذلك: منهم الفقير والغني، ومنهم الصحيح والسقيم، ومنهم العالم والجاهل، ومنهم القوي والضعيف، فرَّق الله تعالى بينهم؛ وذلك ليعرفوا نعمة الله عليهم، ويعرفوا حكمته، وأنه حكيم عليم، قدَّر المقادير، وجعلهم هكذا، ولما خلق الخلق وعرضهم على آدم، وفيهم: من

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٨٦)، وابن حبان (٢/٥٠)، من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٩٦) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

هو مشلول، ومن هو أعور، ومن هو ناقص الخلق، ومن هو معوق، قال: **(أي ربِّ فهلا سويت بينهم؟)**، فقال الله تعالى: **(إني أريد أن أُشكر)**[١]، أي: يرى ذو الفضل فضله فيحمدني ويشكرني، يعني: أن الذي أعطاه الله عينين، إذا رأى فاقد العين عرف نعمة الله، والذي أعطاه الله عينًا واحدة إذا رأى فاقد العينين عرف نعمة الله، والذي أكمل الله يديه إذا رأى مقطوع اليد عرف نعمة الله، وهكذا القوي يشكر الله على قوته إذا رأى الضعفاء، والغني يشكر الله إذا رأى الفقراء أو دونه في حالته.

قوله:

(بَـلْ الْـبُهْمُ فِـي الآلامِ أَيْـضًا وَنِعْمَـةٍ)

أي: حتى البهائم وهي ليست مكلفة أيضًا منها ما هو في ألم، وما هو في نعمة، فالبهائم يُسلط عليها المرض، ويُسلط عليها الجوع، ويُسلط عليها السباع ونحو ذلك، أو تكون منعمة، ينعمها ربها، سواءً كانت مملوكة كبهيمة الأنعام، أو غير مملوكة كالصيود والوحوش والسباع ونحو ذلك، منها ما هو في نعمة ورفاهية، ومنها ما يلاقي ألمًا، وهذه حكمة الله.

فالخلق في الآخرة إما في نعيم وإما في جحيم، والخلق في الدنيا كذلك منهم من هو في نعيم، ومنهم من هو في جحيم، ولكن جاء في حديث قوله ﷺ: **(الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ)**[٢]، أي: كأن المؤمن في سجن؛ لأنه لا يتوسع فيها، ولا يعطي نفسه ما تريده، بل يقتصر على الحلال، ويقتصر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

على الاقتصاد، ولا يوسع لنفسه، ولا يعطيها شهواتها ولا ملذاتها، ويترك ذلك رغبة في أن الله تعالى يعوضه في الآخرة العوض الحسن.

ثم قال:

وَحِكْمَتُهُ الْعُلْيَا اقْتَضَتْ مَا اقْتَضَتْ مِنْ الْـ ـــفُرُوقِ بِعِلْـمٍ ثُـمَّ أَيْـدٍ وَرَحْمَـةِ

الله تعالى حكيم يضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، فاقتضت حكمته العليا ما اقتضته من هذه الفروق، من التفريق بين الخلق، حيث فرقهم إلى غني وفقير، وقوي وضعيف، وسعيد وشقي، وكامل الخلق وناقص الخلق، اقتضت حكمة الله تعالى ما اقتضته من هذه الفروق.

قوله:

(بِعِلْـــمٍ)

أي: بعلم علمه في هؤلاء وهؤلاء.

(ثُـمَّ أَيْـدٍ)

أي: قوة.

(وَرَحْمَـــةِ)

من الله، فلله الحكمة في كل ما خلق، لم يخلق شيئًا إلا ولله تعالى فيه حكمة عظيمة، لا يعلم قدرها إلا الله تعالى، فاقتضت حكمته هذه الفروق، وذلك بعلم منه، وبأيد، وبقوة، وبرحمة منه سبحانه وتعالى، هكذا حكمة الله تعالى اقتضت أن يفرق بينهم: فمنهم من أتته الدنيا على ما يريد، بحيث وسعت عليه الدنيا في مأكله ومشربه، يلبس الجديد من الثياب، ويتنعم بالمآكل والمشارب وما يريده، وآخرون يحرمون من ذلك ويتحملون ويصبرون، فهذه الحكمة ليعرف

المؤمن نعمة الله تعالى عليه، فالذين يكونون في نعيم في الدنيا قد يكونون دون ذلك النعيم في الآخرة، والمؤمنون نعيمهم الطاعات، نعيمهم الجنة، فجنة الدنيا هي العبادة؛ ولذلك يقول بعضهم: «إن في الدنيا جنة مَنْ لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»[1]، وهذه الجنة هي التلذذ بعبادة الله، ويقول آخر: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها»[2]، وأطيب ما فيها التلذذ بعبادة الله عز وجل.

ثم يقول - رحمه الله -:

يَسُوقُ أُولِي التَّعْذِيبِ بِالسَّبَبِ الَّذِي ... يُقَدِّرُهُ نَحْوَ الْعَذَابِ بِعِزَّةِ

أي: الذين خلقهم أشقياء يقدّر لهم الأسباب التي يعملونها؛ ليكونوا مستحقين للعذاب، بحيث يعملون المعاصي التي يستحقون عليها العذاب، بعزة الله تعالى وبقوته وقدرته يسوق أهل التعذيب ـ وهم الكفار ـ إلى الأسباب التي يقدَّرها عليهم؛ ليكونوا من أهل العذاب، ومن الذين يستحقونه نعوذ بالله، ولله تعالى في ذلك حكمة عظيمة لا يعلم قدرها إلا الله تعالى.

ثم قال:

وَيَهْدِي أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ نَعِيمِهِمْ ... بِأَعْمَالِ صِدْقٍ فِي رَجَاءٍ وَخَشْيَةِ

قوله:

---

(١) ذكره ابن القيم في الوابل الصيب (ص٦٩) ومدارج السالكين (١/٤٥٤) وعزاه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/١٦٧) من قول ابن المبارك رحمه الله، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص١٨٩)، وابن القيم في إغاثة اللهفان (١/٧٢).

(أُولِـــــــــي التَّنْعِـــــــيمِ)

وهم المؤمنون الذين منَّ عليهم وهداهم، يهديهم إلى نعيمهم الذي يكونون به من أهل النعيم، ومن أهل الأعمال الصالحة، فيهدي أهل التنعيم الذين أنعم عليهم نحو نعيمهم الذين هو الهداية والتوفيق والأعمال الخيرية والحسنات، والأعمال الصالحة، وأعمال الصدق ونحو ذلك.

قوله:

(فِـــــي رَجَـــــاءٍ وَخَـــــشْيَةٍ)

يعني: يجمعون بينهما بين الخوف والرجاء، الرجاء هو: الأمل القوي من الله تعالى في هدايتهم، والخشية هي: شدة الخوف، فهو سبحانه يهدي المنعم عليهم نحو نعيمهم بأعمال صدق، ويجمعون بين الخوف والرجاء، كما مدح بذلك عباده بقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، فيجمعون بين الرجاء والخشية، بحيث إن الرجاء يحملهم على قوة الأمل في فضل الله تعالى، والخوف يحملهم على ترك المعاصي والذنوب، خوفًا من العذاب الذي قدره على تلك المعاصي.

ثم يقول:

وَأَمْـرُ إِلَـهِ الْخَلْـقِ بَـيِّنٌ مَـا بِـهِ ... يَسُوقُ أُولِـي التَّنْعِـيمِ نَحْـوَ السَّعَادَةِ

(إِلَـــــهِ الْخَلْـــــقِ)

هو الرب سبحانه وتعالى، أمره بيِّن السبب الذي يسوق به أهل التنعيم نحو السعادة، وهو أنه قدَّر لهم الهداية، وجعل لذلك أسبابًا، وجعل من أسبابه إرسال الرسل والدعاة - أهل الدعوة - الذين يحتسبون فيدعون إلى الله تعالى، حيث رغبهم في ذلك بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،

وبقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]، فالله تعالى أمره قد بيَّن السبب الذي يسوق به أهل التنعيم نحو السعادة.

ثم يقول:

فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ أَثَّرَتْ ... أَوَامِرُهُ فِيهِ بِتَيْسِيرِ صَنْعَةِ

وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ لَمْ يَنَلْ ... بِأَمْرٍ وَلا نَهْيٍ بِتَقْدِيرِ شِقْوَةِ

وهذا ما أخبر به النبي ﷺ لما قال: **(ما مِنْكُمْ مِن أَحَدٍ إلا وقد كُتِبَ مَقْعَدُهُ من النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ من الْجَنَّةِ)**، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا نَتَّكِلُ على كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قال: **(اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، أَمَّا من كان من أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا من كان من أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)**[١]، وإذا يسر الله تعالى السعادة لأهلها فذلك فضل منه ومنّة عليه، وإذا أضل أهل الشقاوة فإن ذلك عدل منه، ولله تعالى الحكمة في إضلال هؤلاء وفي إصلاح هؤلاء.

قوله:

(فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ)

أهل السعادة الأخروية الذين هم المؤمنون الأتقياء، أهل السنة والجماعة.

قوله:

(أَثَّرَتْ أَوَامِرُهُ فِيهِ)

الأوامر التي هي: أوامر الله وأوامر رسوله، وكذلك دعوة الدعاة الذين يدعون إلى الله تعالى، فإن أهل السعادة يتأثرون بهذه الأوامر، وييسر الله لهم

---

(١) سبق تخريجه.

الأعمال الصالحة، كما في هذا الحديث: **(فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ)**، فيتأثرون ويقبلون النصائح، ويمتثلون الأوامر، ويسيرون على النهج القويم، ويهديهم الله تعالى، ويعملون ما هو قربى وعمل صالح، ويبتعدون عن أسباب الشقاء، وعن أسباب الحرمان والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

قوله:

(وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)

أي: مَن كان من أهل الشقاوة الذين كُتب عليهم أنهم أشقياء، فإنه ولو دُعي ولو أُمر، لا يقبل ولا يأتمر، فهم لا يمتثلون بالأوامر، ولا يتركون الزواجر؛ وذلك لأن الله تعالى قدَّر عليهم أنهم أشقياء محرومون، سنة الله التي مضت في عباده؛ لذا قال: **(لَمْ يَنَلْ بِأَمْرٍ وَلا نَهْيٍ بِتَقْدِيرِ شِقْوَةِ)**؛ لأن الله تعالى كتب في الأزل أنه شقي، ولا يمكن أن يُغير ما كتبه الله؛ ولهذا أخبر تعالى بأنهم لا يقبلون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، يعني: أنهم لا يقبلون الإنذار الذي تنذرهم به ولا يتأثرون، وأخبر أيضًا بأنه حرمهم بقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[البقرة: ٧]، واعترفوا بذلك لما دعاهم النبي ﷺ، فقد اعترفوا بأنهم لا يقبلون، فأخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، اعترفوا بأنهم لا يقبلون ذلك، ولما دعاهم نوح ـ عليه السلام ـ أخبر الله بأنهم لم يقبلوا، يقول نوح – عليه السلام–: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧]، فهذا علامة الحرمان، لو أُتي بكل آية لم يقبل، فالذي كتب الله

عليه الشقاوة لا يقبل ولا يتأثر، فمن كان من أهل الشقاوة لم يعمل بالأمر ولا بالنهي، ولم ينتفع به؛ لأن الله قدَّر عليه أنه شقي.

ثم يقول - رحمه الله -:

وَلا مَخْرجٌ لِلْعَبْدِ عَمَّا بِهِ قَضَى وَلَكِنَّهُ مُخْتَارُ حُسْنٍ وَسَوْأَةِ

أي: أن العبد هو مختار الحُسن ومختار السوء، فليس للعبد مخرج عما قضى الله تعالى به، ولكن قد جعل الله له اختيارًا، فيختار الحسنات إذا كان من أهل السعادة، أو يختار السيئات إذا كان من أهل الشقاوة؛ لأن الله أعطاه هذه القدرة وهذه القوة التي يُزاول بها هذه الأعمال، وإذا عُرف ذلك فإنه لابد أن يختار ما قدر الله له، فإذا عُرف بأنه ليس للعبد مخرج عما قضى الله عليه، نقول: إن العبد مختار، يختار الحسنات ويختار السيئات بما أمكنه وبما قدَّر وأقدره الله عليه.

يقول - رحمه الله -:

فَلَيْسَ بِمَجْبُورٍ عَدِيمُ الإِرَادَةِ وَلَكِنَّهُ شَاءٍ بِخَلْقِ الإِرَادَةِ

أي: لم يكن مجبورًا عديم الإرادة، بل له إرادة وله مشيئة، فللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، ولهم مشيئة، والله خالقهم، وخالق قدرتهم، وإرادتهم، والعبد يوصف بالأعمال، فالعبد هو المؤمن والكافر، والبر والكافر، والمصلي والصائم، ليس بمجبور عديم الإرادة بل له مشيئة وتلك المشيئة مخلوقة، خلق الله تعالى فيه هذه الإرادة التي تُنسب إليه الأعمال بسببها.

ثم قال - رحمه الله -:

وَمِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ خَلْقُ مَشِيئَةٍ بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الْهُدَى بِالضَّلالَةِ

أي: لا ينبغي أن ننكر مشيئة الله، ولا أن نقول: إن العباد قوتهم أقوى من

قوة الله تعالى، بل نقول: ربنا - سبحانه وتعالى - خالق المشيئة التي بها يصير العبد مختارًا للهدى أو للضلالة؛ ولأجل ذلك قد يحار العقل في ذلك، ولكن إذا عرف بأن الله خالق كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه لا يكون في الوجود ما لا يريد، إنما يكون في الوجود ما يريد، ولا يمكن أن العباد يخرجون عن قدرته، أو يعصونه قسرًا وقهرًا بدون قدرة، وتكون قدرتهم أقوى من قدرة الله، كما يقول ذلك المعتزلة والذين يسمون إنكار القدر (العدل)، ويعتلون ويقولون: لا يمكن أن الله يخلق المعاصي أو الكفر في العباد ثم بعد ذلك يعذبهم على ذلك، فإن هذا يعتبر ظلمًا منه لهم، هكذا يعللون، وعلى كل حال فقد يعجبون من خلق الإرادة وخلق المعصية في العبد، ثم يعذبه عليها أو يثيبه عليها، نقول: إن مشيئته عامة في كل شيء، كما في قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [المدثر: ٥٦]، ولكن لما خلق فيهم ذلك الاختيار، صار للعبد اختيارًا يختار الهدى ويختار الضلالة، ويُعذب على هذا ويُثاب على هذا.

١١٩ فَقَوْلُكَ هَلْ أخْتَارُ تَرْكًا لِحِكْمَةِ كَقَوْلِكَ هَلْ أخْتَارُ تَرْكَ الْمَشِيئَةِ

١٢٠ وَأخْتَارُ أنْ لا أخْتَارُ فِعْلَ ضَلالَةٍ وَلَوْ نِلْتَ هَذَا التَّرْكَ فُزْتَ بِتَوْبَةِ

١٢١ وَذَا مُمْكِنٌ لَكِنَّهُ مُتَوَقِّفٌ عَلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنْ ذِي الْمَشِيئَةِ

١٢٢ فَدُونَك فَافْهَمْ مَا بِهِ قَدْ أجَبْتُ مِنْ مَعَانٍ إذَا انْحَلَّتْ بِفَهْمٍ غَرِيزَةِ

١٢٣ أشَارَتْ إلَى أصْلٍ يُشِيرُ إلَى الْهُدَى وَلِلَّهِ رَبِّ الْخَلْقِ أكْمَلُ مِدْحَةِ

١٢٤ وَصَلَّى إلَهُ الْخَلْقِ جَلَّ جَلالُهُ عَلَى الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ

الشرح:

قوله – رحمه الله –:

فَقَوْلُكَ هَلْ اخْتَارَ تَرْكًا لِحِكْمَةِ كَقَوْلِكَ هَلْ أخْتَارُ تَرْكَ الْمَشِيئَةِ

أي: قولك أيها المعترض، نقول: أنت لا تختار تركًا للحكمة، فالحكمة واقعة كما شاء الله، والحكم الذي قدره الله واقع ولابد، فليس لك اختيار، لكن لك قدرة تتمكن بها من العمل، فهل تقول: (**هَلْ أخْتَارُ تَرْكَ الْمَشِيئَةِ؟**) هذا كله مخالفة لما أثبته الله، قد أثبت الله المشيئة بقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكن تلك المشيئة مسبوقة بمشيئة الله تعالى.

ثم يقول – رحمه الله –:

وَأخْتَارُ أنْ لا أخْتَارُ فِعْلَ ضَلالَةٍ وَلَوْ نِلْتَ هَذَا التَّرْكَ فُزْتَ بِتَوْبَةِ

أي: إذا نال هذا الترك، يعني: ترك أسباب الضلالة، فاز بتوبة الله عليه، فإذا قال:

(وَأَخْتَـــــارُ أَنْ لا أَخْتَـــــارُ)

فإن هذا أيضًا خطأ، إذا قيل: هل للعبد اختيار، فيقول بعضهم: أختار أن لا أختار، نقول: هذا خطأ، بل لك اختيار ولك قدرة، ولا تختار ترك الحكمة، ولا تختار ترك المشيئة، ولكن لك اختيار به تزاول الأعمال، ولو نلت هذا الترك فزت بتوبة الله تعالى عليك، وصرت موفقًا.

ثم يقول:

وَذَا مُمْكِـــنٌ لَكِنَّـــهُ مُتَوَقِّـــفٌ عَلَـى مَـا يَـشَاءُ اللَّـهُ مِـنْ ذِي الْمَـشِيئَةِ

أي: ممكن للعبد أن يختار، وممكن أن يعمل ويفعل، وله مشيئة وله إرادة، ولكن هذا كله متوقف على مشيئة الله تعالى، فلله الحكمة العظيمة، وله الإرادة العامة، وله المشيئة الكاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهذا ممكن يعني: اختيار العبد وقدرته، ولكنه متوقف على مشيئة الله، فالله تعالى هو ذو المشيئة التامة.

يقول - رحمه الله -:

فَدُونَك فَافْهَمْ مَا بِهِ قَدْ أَجَبْتُ مِنْ مَعَـــانٍ إِذَا انْحَلَّـــتْ بِفَهْـــمِ غَرِيـــزَةِ

أي: دونك أيها الحائر، ودونك أيها السائل، افهم ما قد أجبناك به من هذه المعاني، فإذا انحلت فهمت غريزة الإنسان التي جعلها الله تعالى غريزة فيه.

ثم قال:

أَشَارَتْ إِلَى أَصْلٍ يُشِيرُ إِلَى الْهُدَى وَلِلَّـــهِ رَبِّ الْخَلْـــقِ أَكْمَـــلُ مِدْحَـــةِ

قوله:

(أَشَـــارَتْ)

يعني: هذه الأبيات، وهذا الرد.

قوله:

(إِلَــى أَصْــلٍ يُــشِيرُ إِلَــى الْهُــدَى)

الأصل الذي يشير إلى الهدى هو أن من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، كما أخبر الله بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦ – ٣٧]، هذا أصل الهدى.

قوله:

(وَلِلَّــهِ رَبِّ الْخَلْــقِ أَكْمَــلُ مِدْحَــةٍ)

أي: الرب ـ سبحانه وتعالى ـ له أكمل مدحة، فهو الممدوح والمستحق للمدح على تقديره، وعلى هدايته من هدى، وعلى إضلاله من أضل، فهو الذي يهدي من يشاء برحمة منه وفضل، ويضل من يشاء بحكمة منه وعدل، ولا اعتراض للعباد عليه، ولله الحجة البالغة على عبادة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد قواهم وأعطاهم، وهم يقدرون بما أقدرهم الله تعالى عليه.

يقول – رحمه الله –:

وَصَــلَّى إِلَــهُ الْخَلْــقِ جَــلَّ جَلالُــهُ   عَلَى الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ

ختم هذه الأبيات بالصلاة على النبي ﷺ، ووصف الله تعالى بأنه إله الخلق، ووصفه بالجلال بقوله:

(جَــلَّ جَــلالُهُ)

ووصف النبي ﷺ بأنه المصطفى؛ لأنه من الذين اصطفاهم الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال تعالى في بعض الأنبياء: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]، والنبي ﷺ من

المصطفين، وهو أيضًا المختار، الذي اختاره الله تعالى لحمل رسالته، وهو أيضًا خير البرية، أي: خير هذه الخليقة، فله منا الصلاة والسلام عليه، وندعو الله تعالى أن يثيبه على ما بلغ من الرسالة، وعلى ما بيَّن، وعلى ما دعا إليه، وندعو الله أيضًا لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على ما بيَّنه في هذا النظم، وكذلك في رسائله الأخرى، التي بيَّن فيها كل ما يحار فيه من يحار من عباد الله تعالى، فبيَّن أن الله سبحانه أحكم الكلام، وبيَّن كل ما يشتبه فيه العباد، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والله سبحانه وتعالى بعث الرسل، وأنزل الكتب، وأمر العباد بأن يتبعوا ما أُنزل إليهم أمرًا صريحًا بقوله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣]، وبقوله: ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ومن لم يتبع الرسل وعصى، فإنه من أهل الضلال، ومن اتبعهم، فإنه من أهل الهداية بإذن الله تعالى، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فحيث عرض علي الشيخ الدكتور/ طارق بن محمد الخويطر، وفقه الله وسدد خطاه، أن أشرح التائية لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في الرد على الجبرية، وعلى ذلك الذي ادعى أنه ذميٌّ، وأنه متحير في أمر القضاء والقدر، وفي أن الله حكم على الإنسان بأنه شقي أو نحوه، والتي أجاب فيها شيخ الإسلام بأكثر من مائة وعشرين بيتاً، في أمر القضاء والقدر، وحكم تكليف الإنسان بما لا يطيق، ونحو ذلك.

وقد قمت بشرحها في أوقات متفرقة، غالبها أن نكون في الطريق، ذاهبين إلى بعض الأماكن، وشرحتها شرحاً متوسطاً، ولم أتمكن من مراجعة الكتب التي تتعلق بالمسألة، ولكن المعاني واضحة والحمد لله، والأبيات صريحة في المراد، وإنما تحتاج إلى إيضاحها بعد أن تكون مجملة؛ لتكون موسعة ومشروحةً ومذكورة الأمثال، زيادة على الأمثال التي تضمنتها، وقد انهينا شرحها في مواقف ورحلاتٍ متعددة، من المنزل إلى الحرس، أو من الحرس إلى المنزل، أو نحو ذلك، وقد قام الشيخ الدكتور طارق بن محمد الخويطر وفقه الله تعالى، بتسجيل ذلك الشرح، ثم قام بتفريغه، وحرص على ذلك، وقد فوضت إليه تصحيح تلك الأبيات وشرحها، وكذلك أبحت له التصرف والتعليق عليها، وقد قام بما يجب في ذلك، وقد رغب أن أشرحها لينتفع بها من أراد الله تعالى به خيراً، ولتزول تلك الشبهات التي يتعلق بها أولئك المجبرة، الذين لا يزالون يحتجون بأنهم كتب عليهم الشقاء والعياذ بالله، ومع ذلك لا يتقيدون عن

المحرمات، ولا يحتجون بالقدر، لعلها أن تكون قاطعةً لشبهاتهم، ونسأل الله تعالى أن يعين أخانا الدكتور طارق بن محمد الخويطر على سعيه وعلى حرصه على نشر تلك الرسائل ونحوها، وقد أبحت له أن يعلق عليها، وأن يكون له حقوق الطبع، وله التعليق بما يراه، وذلك لكفاءته، وأهليته، وقدرته على التصحيح والتعليق، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم،،،

أملاه

عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين

في يوم الاثنين ١٤٢٩/٦/٢٦هـ

فهرس المراجع

[١] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

[٢] البداية والنهاية، لعماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ.

[٣] تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

[٤] تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

[٥] تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.

[٦] تفسير ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٥هـ.

[٧] التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، طبعة ١٣٨٧هـ.

[٨] الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار السلام للنشر والتوزيع.

[٩] جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم، للإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.



[١٠] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة ١٤٠٣هـ.

[١١] الجوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عبد العزيز الراجحي.

[١٢] حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

[١٣] الدعاء، سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

[١٤] سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ.

[١٥] سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ.

[١٦] سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، طبعة ١٤١٤هـ.

[١٧] سنن الدارقطني، تحقيق عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت.

[١٨] سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

[١٩] سنن النسائي الصغرى (المجتبى)، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ.

[٢٠] سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، وإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

[٢١] شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

[٢٢] شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة١٣٩١هـ.

[٢٣] شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

[٢٤] صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

[٢٥] صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٣٩٠هـ.

[٢٦] صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

[٢٧] صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

[٢٨] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، أبو عبد الله شمس الدين محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

[٢٩] طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق عمر بن محمود أبوعمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

[٣٠] العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت.

[٣١] العقيدة الطحاوية، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

[٣٢] العقيدة الواسطية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد ابن عبدالعزيز بن مانع الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

[٣٣] القدر وما ورد في ذلك من الآثار، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرحمن العثيم، دار السلطان، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

[٣٤] مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

[٣٥] المحدث الفاصل، الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة١٤٠٤هـ.

[٣٦] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.



[٣٧] المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، مكتبة المعارف.

[٣٨] مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

[٣٩] مسند الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

[٤٠] مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

[٤١] مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

[٤٢] مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

[٤٣] المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ.

[٤٤] معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت.

[٤٥] المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

[٤٦] منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

[٤٧] موطأ الإمام مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء التراث العربي، مصر

[٤٨] الوابل الصيب من الكلم الطيب، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.



فهرس الموضوعات

*****

مؤسسة ابن جبرين الخيرية

أنشئت وفاءً لهذا العالم الجليل سماحة الشيخ الوالد العلامة د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين رحمه الله لتتبنى الرسالة التي كان يحملها وينشرها.

تشرفت في أول مجلس أمناء لها برئاسة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله حينما كان أميرًا لمنطقة الرياض، ويضم مجلس أمنائها سماحة المفتي العام للمملكة العربية السعودية، وعددًا من أصحاب الفضيلة العلماء وأصحاب السمو الأمراء، وأصحاب المعالي الوزراء، وأصحاب المعالي والسعادة من رجال الأعمال، ووجهاء المجتمع.

وتعمل المؤسسة وفق التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى، وتستعين بالمختصين كل في مجاله، وتضم ضمن العاملين بها طاقات متميزة وخبرات فريدة.

ومن أهم أعمالها:

أولاً: العناية بجمع وتوثيق ونشر تراث الشيخ العلمي من خلال:

١ ـ جمع التراث الصوتي والمرئي والمكتوب لسماحة الشيخ رحمه الله.

٢ ـ نشر هذا التراث وإخراجه في عدد من الأوعية من خلال الوسائل المسموعة والمرئية والمقروءة إضافة إلى الكتب المطبوعة.

ومن أبرز المشروعات التي تعمل على إكمالها وتطويرها:

(فتاوى الشيخ عبدالله بن جبرين).

ـ الكتب الموسوعية في شتى مجالات العلوم الشرعية التي تولى الشيخ شرحها.

ـ الصفحات الرسمية للشيخ رحمه الله على مواقع التواصل الاجتماعي.

ـ الموقع الالكتروني الرئيس للشيخ رحمه الله والمواقع التابعة له.

ـ الوقف العلمي الذي سيخصص ريعه لرعاية الجهود التي كان الشيخ رحمه الله يقوم بها.

ثانيًا: الاستمرار في العمل التعليمي الذي كان يقوم به الشيخ رحمه الله من خلال:

١ ـ الدروس العلمية الدائمة التي كان يقوم بها الشيخ رحمه الله؛ حيث يدرس فيها الآن أبرز تلاميذه وغيرهم من طلاب العلم على مدار العام.

٢ ـ الدورة الشرعية السنوية التي كان يقيمها الشيخ رحمه الله، وقد استمرت المؤسسة بعد وفاته رحمه الله في عقدها ورعاية طلابها، ويشارك في إلقائها عدد من كبار العلماء.

٣ ـ مواصلة القيام بالأعمال الاجتماعية التي كان الشــيخ رحمه الله يقــوم بها، ومنها إحياء مجلسه اليومي بعد صلاة العصر لاســتقبال الزوار وذوي الحاجات ومساعدة الناس بالشفاعات والوجاهات والفتاوى وغيرها.

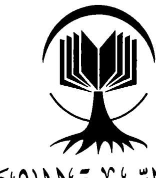
رحم الله الشيخ وأسكنه فســيح جناته وجعل ما قدمه للأمة في ميزان حسناته، وأخلف على الأمة بخير، وجزى الله ولاة الأمر في هذه البلاد على وفائهم لعلماء البلاد ووقوفهم مع الناس في كل أحوالهم.

إصدارات مؤسسة ابن جبرين الخيرية

رقم الكتاب	اسم الكتاب
-	أعجوبة العصر، ترجمة حياة سماحة الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رَحِمَهُ اللَّهُ.
١	شرح عقيدة أهل السنة والجماعة.
٢	قدوة يحتذى بها ـ نظرات في الجهود العلمية والدعوية لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.
٣	حقيقة الفتوى وشروط المفتي.
٤	الرقية الشرعية.
٥	مختارات من الرقية الشرعية.
٦	الرياض الندية شرح العقيدة الطحاوية (٥ مجلدات).
٧	السبك الفريد شرح كتاب التوحيد (مجلدان).
٨	التعليقات الزكية شرح العقيدة الواسطية (مجلد).
٩	إبهاج المؤمنين شرح منهج السالكين (مجلدان).
١٠	الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد (مجلد).
١١	النقوش الذهبية على القلائد البرهانية (مجلد).
١٢	شرح الأربعين النووية (مجلد).
١٣	تيسير فقه المعاملات (مجلد).
١٤	الإفصاح شرح التحقيق والإيضاح من مسائل الحج والعمرة والزيارة (مجلد).
١٥	منهاج المسلم بين العلم والعمل.
١٦	الفتاوى الشرعية في المسائل الطبية.
١٧	حاجة البشر إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
١٨	شرح أصول العقائد الدينية.
١٩	الثمرات الجنية شرح المنظومة البيقونية
٢٠	فتاوى وأحكام في نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
٢١	شرح المنظومة الحائية.
٢٢	شرح التائية.
٢٣	شرح نواقض الإسلام.
٢٤	شرح عقيدة الكلوذاني.

٢٥	شرح أصول السنة.
٢٦	الأجوبة الفقهية على الأسئلة التعليمية والتربوية.
٢٧	النخبة من الفتاوى النسائية.
٢٨	شرح شروط الصلاة.
٢٩	تربية الأجيال وتنشئة الأطفال.
٣٠	فتاوى الزكاة.
٣١	التدخين مادته وحكمه في الإسلام.
٣٢	الصيام آداب وأحكام.
٣٣	السراج الوهاج للمعتمر والحاج.
٣٤	حوار حول الاعتكاف.
٣٥	فصول ومسائل تتعلق بالمساجد.
٣٦	شرح لامية شيخ الإسلام.
٣٧	الحلول الشرعية للخلافات والمشكلات الزوجية والأسرية.
٣٨	المفيد في تقريب أحكام المسافر.
٣٩	توضيح منسك شيخ الإسلام ابن تيمية.
٤٠	حكم إتيان السحرة وتصديقهم.
٤١	شرح الزركشي (٧ مجلدات)
٤٢	تخريج أحاديث شرح الزركشي (٣ مجلدات).
٤٣	شرح كتاب تجريد التوحيد المفيد.
٤٤	شرح كتاب اعتقاد أئمة الحديث.
٤٥	شرح رسالة الإسلام دين كامل.
٤٦	شرح رسالة لطيفة في أصول الفقه
٤٧	شرح رسالة أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته.
٤٨	شرح كتاب جامع المسالك في أحكام المناسك.
٤٩	شرح كتاب مختصر الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ.

الإخراج والتنفيذ الفني
والطباعة



دار التربية الهادفة
للطباعة والنشر والتوزيع

00961 3 814 270
113-5043 Beirut -Lebanon
dr.h.a@dartarbiya.com
www.dartarbiya.com
00966 5 30 47 30 30

بيروت ـ لبنان